الباب الأول

الطابع الأيديولوجي للمجتمع الصناعي المعاصر وأثره على المجتمع الإسلامي

- علمانية والحاد ٠
- المجتمع الاسلامى والغزو الأوروبى
- صراع الأيديولوجيات ومستقبل الاسلام ٠

obeikandl.com

الفصل الأول

علمانية والحاد

الطابع الأيديولوجى .. هو ذلك الطابع الفكرى والعقيدى الذى تكون ، ليكون بديلا عن الطابع المسيحى فى المجتمع الأوروبى . ثم ليكون بديلا بعد ذلك عن الطابع الدينى عامة فى المجتمعات الانسانية الأخرى ، التى لها عقيدة وايمان بالله .. جاء بها الوحى السماوى .

والمجتمع المعاصر هو امتداد للمجتمع الأوروبى الحديث ، الذى نشأ ثم تبلور بعد قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩ م .. على أثر الاصطدام الدموى ، والفكرى مع مجتمع الكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى . وهو المجتمع الذى كان يحكم باسم الله فى الأرض ، ويمنح فيه (البابا) الاعتقاد بالعصمة فيما يقول ، والاذعان والطاعة لما يأمر به ، وقوله الفصل . وهذا القول يكون جزءا فى التقاليد المسيحية (Traditions) التى لها اعتبار الكتاب المقدس ، ومتممة له . والبابا فى هذا المجتمع أيضا .. صاحب الغفران ، وصاحب الجزاء باللعن ، نيابة عن الله فى السماء(١) ..

---

(١) وقد نزعت الشيعة الاثنا عشرية هذا المنزع فهم يدعون العصمة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب وأحد عشر رجلا من سلالته ، وان لم يدعها على لنفسه ، أو أحد من بنيه له ولهم .

كما ترى هذه الطائفة أن هؤلاء الاثنى عشر اماما من أئمتهم مصدر تشريع ، على خلاف ما كان يؤمن به هؤلاء الصالحون رحمهم الله .

الطابع العلمانى :

والمجتمع الأوروبى الحديث الذى قام كنتيجة للنهضة الأوروبية ، والتمرد على حكم الكنيسة ، وعلى أثر الثورة الفرنسية .. لم يكن من الطبيعى مجتمعا مؤيدا لاتجاه الكنيسة ، ولا محتضنا للقيم التى تدعو اليها ، فضلا عن أن يحتفظ بالأسلوب الذى انتهجته فى الحكم طوال القرون التى ساد حكمها فيها .

... وانما كان مجتمعا جديدا قام على أنقاض مجتمع تداعى للسقوط والانهيار ، ومعارضا لما كان فيه من اتجاه ، وعلى نقيض ما كان يدعو اليه ويقدره من قيم .

قام المجتمع الحديث منذ نهاية القرن الثامن عشر اذن ليرفض دعوة الكنيسة صراحة . كما رفض حكمها وثار عليها قبل ذلك .

ودعوة الكنيسة هى دعوة الى الله فى السماء ، والى دينه على الأرض .. هى دعوة الايمان بدنيا وآخرة ، وبوجود قائم مؤقت ، وآخر مرتقب دائم .

ومعنى أن يرفض المجتمع الحديث دعوة الكنيسة .. هو أن يشك على الأقل فى وجود الله ، كما يشك فى وجود الآخرة ، وأن يرتكز ايمانه على الأقل فى وجود نفسه وبوجود الأرض التى يعيش فوقها ، ان ترك قضية الايمان بالله والسماء واليوم الآخر جانبا .. الى حين يستطيع أن يناقش فيها ، ويعلن ازاءها الرأى فى غير خشية من سوط العذاب ، أو صوت النكير .. الذى كانت ترفعه الكنيسة ، ويستجيب له أتباعها المؤمنون بها .

ولأن المجتمع الحديث يوم قام .. اقتصر ايمانه على وجود نفسه وابتدأ يفكر فى أن يستقل عن أية وصاية غريبة على منطقه ، وفى أن يخطط بذاته سلوك حياة أفراده الشخصية ، وفى علاقتهم بعضهم مع بعض . وهنا كانت معاييره فى الأخلاق ، وقوانينه فى المجتمع نفسه ، ونظام حكمه فى الدولة .. صادرة من ايمان بالانسان وحده ، دون ايمان بموجود آخر قبله ، أو بعده ..

.. لأن كذلك يوم أن قام ، قصر ايمانه على وجود الأرض التى يعيش فوقها وابتدأ يطرح تفكير ما بعد الطبيعة وما هنالك — من وجهة نظر الدين — من جنة ونار ، وآخرة ، وما يسبق دخولها : من بعث ونشور ، وما يتبع هذا البعث من حياة أبدية خالدة .

... ومن أجل ذلك .. عرف اتجاه المجتمع الأوروبى الحديث بالاتجاه الأرضى ، أو الدنيوى ، أو الزمنى ، فى مقابل اتجاه السماء أو الاتجاه الآخرة ، أو الاتجاه الأبدى الخالد .. الذى كانت تدعو اليه الكنيسة ، والذى كان سلطانها يقوم على الايمان به من أفراد المجتمعات .

وعرف هذا الاتجاه الأرضى فى محيط المجتمعات الاسلامية ، بعد المغالطة الفكرية بين الغرب والشرق : باسم الاتجاه العلمانى .. ولعله منسوبا على غير قياس الى « العالم » وهذا الاسم ترجمة للكلمة اللاتينية (Saec (u) Larism) ، التى تعرف فى الانجليزية باسم (Secular) كوصف وباسم (Secularism) كاتجاه ومذهب .

وصحب كلمة « العلمانية » فى محيط المجتمعات الاسلامية الشرقية كذلك .. معنى الابتعاد عن الدين فى التوجيه ، وفى التربية ، وفى التشريع ، وفى نظام الحكم . وأصبح اذا أطلق هذا المصطلح ، فهم منه ذلك الاتجاه الانسانى المستقل عن السلطة الدينية ، وعن أتباع رجال الدين (المسلمين) .

وأول المجتمعات الاسلامية المعاصرة التى أعلنت فى دستورها مبدأ العلمانية كان المجتمع التركى على عهد أتاتورك ، يوم الغى الخلافة الاسلامية ، فى اعلان الدستور فى ابريل ١٩٢٤ ، وجعل المسلمين مثل غيرهم خاضعين لقانون مدنى واحد . ثم سن القوانين الجديدة : فأخذ القانون المدنى من سويسرا ، والقانون الجنائى من ايطاليا ، والقانون التجارى من المانيا ، وقانون المرافعات من سويسرا والمانيا ، وأدخل فيها كلها بعض الأحكام الواردة فى القوانين التركية ، والغى وزارة الأوقاف .

وبقيام المجتمع الحديث بعد الثورة الفرنسية لازمه مع ذلك : وجود صراع بين الكنيسة من جانب وقيادة المجتمع نفسه التى تبلورت فى شكل الدولة من جانب آخر . وأصبح هناك فى المجتمع الأوروبى ازدواج فى القيادة ، وفى التوجيه ، وصراع بين القيادتين العلمانية أو الزمنية .. والروحية أو الكنيسة . ودخل هذا الصراع مجال الطاعة والتبعية للأفراد ، كما نفذ الى دائرة التفكير والفلسفة ، وربما كان عنفه أو تجسده فى هذه الدائرة الأخيرة أوضح وأقوى منه فى أية دائرة أخرى ، أو فى أى مجال آخر من مجالات الحياة الانسانية .

وتناول الفكر الفلسفى قضية : « الدين والدولة » بين تأييد لضرورة الدين ، وانكار لهذه الضرورة .... بين قيمة المبادىء الدينية فى توجيه الانسان وعدم وجود قيمة لها ، أو عدم ضرورة وجودها فى هذا التوجيه . وكان لابد لنوع التفكير الفلسفى الذى اتجه الى تأييد الدين أن ينزل الى مجال الدفاع عنه ، ورد الشبهات والتهم والقصور التى توجه اليه .

وفى مجال الدفاع عنه كان ينزلق الأمر أحيانا الى المواءمة بين قضايا الدين ومبادئه من جانب ، والاتجاه الفكرى السائد من جانب آخر ، على نحو

ما يرينا « ديالیکت » هيجل(١) وفلسفته ذات النزعة الموحدة ، من تغليب الطابع الطبيعى فى البحث ــ وهو الطابع السائد اذ ذاك ــ على خواص البحث الميتافيزيقى ، أساس الدين والايمان بالله . ونتيجة لذلك جعل الله هو الطبيعة ، وبرهن على أن وجود الله ، السابق على وجود الطبيعة .. لا يخرج عن كونه وجود « فكرة » . وعندما تحققت الفكرة كانت الطبيعة المشاهدة .. هى الحقيقة الالهية فى واقعها وتحققها .

وشابه بذلك منطق أرسطو فى الصلة بين « الكلى » و « الجزئى » أو بين « العام » و « الخاص » .. وهى صلة المفهوم فى الذهن والتصور ، طالما صدق فى الواقع والشاهد .. أى أن وجود الكلى هو وجود ذهنى فقط . أما وجوده الخارجى أو الشخصى فهو وجود الجزئى والمشخص ، ولذا ليس له وجود شخصى مستقل .

وبانزال هيجل « ما بعد الطبيعة » فى الدين .. الى « الطبيعة » فى البحث العلمى آنذاك ، جر فى ملاعمته الفلسفية « السماء » الى « الأرض » .. والحق وجود الله الذى لا يدرك بالبصر .. بوجود المشاهد المحسوس فى الطبيعة .

الطابع الالحادى :

وفى مجال انكار قيمة الدين فى توجيه الانسان .. تجاوز بعض الاتجاهات الفلسفية دائرة القيمة الذاتية للدين الى ربطه بالخرافة وجعله انتاجا للوهم والخيال الانسانى ، تحت تأثير الصدفة ، أو تحت الوقوع لحالات نفسية معينة .. وبذلك لا يحتمل الدين اختبارات العلم ، ولا يقف أمام كشفه !.

والاعتماد على الدين اذن فى التوجيه .. هو اعتماد على الخرافة والوهم ، وفى الوقت نفسه ، الايمان به صد عن العلم وعن تقبل نتائجه ، مما يصعب على الانسان معيشته وحياته !..

وانتقل الصراع الفكرى بذلك الى قضية : « العلم والدين » .. بعد قضية « الدين والدولة » . وكل قضية من هاتين القضيتين تشير الى عهد معين من عهود البشرية والتطور فى المجتمع الأوروبى ، بعد أن يشيرا معا الى تحول الانسان عن الايمان التقليدى ــ وهو الايمان بالله الى ايمان جديد ، وعن دين الكنيسة الى دين الانسان ..

---

(١) هو جورج فيلهلم هيجل (George Wilhelm Friedrich Hegel) (١٧٧٠ ــ ١٨٣١) .

فقضية الدين والدولة تشير الى بدء الخروج عن سلطة الكنيسة ، وتحدى هذه السلطة فى الطاعة والتبعية ، والانقضاض عليها .. طلبا لسيادة الانسان على نفسه . والوعاء الزمنى لذلك هو عصور النهضة الأوروبية التى امتدت من القرن الرابع عشر الميلادى الى القرن السادس عشر منه .

وقام مارتن لوثر فى هذه الفترة (١٤٨٣ — ١٥٤٦) بحركة الاصلاح الدينى ، دفاعا عن المسيحية كدين سماوى ، فى مواجهة الشكوك ، والانتقاضات ، والحملات التى كانت توجه الى الكنيسة الكاثوليكية ، باعتبارها مجسدة لروح الله ، وممثلة لحكومته على الأرض !

ونشأت بسبب دفاع « لوثر » عن المسيحية ، عن طريق شروحه للمبادىء المسيحية ، وفصله بين التقاليد ونص الكتاب المقدس فى الاعتبار ووجوب التبعية والطاعة .. خصومة مذهبية بين اتجاهه الذى عرف فيما بعد : بالبروتستنتية .. والكثلكة ..

ثم تحولت الفجوة بينهما الى عقيدة دينية فى المسيحية ، تمثل كل واحدة منهما كنيسة خاصة بها . فبينما تمثل الكنيسة « الانجيلية » — نسبة الى الانجيل ، واعتباره وحده دون التقاليد — الاتجاه البروتستنتى ، اذا بالكنيسة الكاثوليكية لا تزال ممثلة للاتجاه المسيحى فى روما ، قبل قيام مارتن لوثر باصلاحه الدينى .

ويشبه الوضع بينهما .. ما بين اتجاه ابن تيمية واتجاه الشيعة الاثناعشرية فى تصوير الاسلام ومبادئه . فالشيعة الاثناعشرية : اذ يؤمنون بعصمة الامام ، وبجعل أقواله فى الحجة جزءا متمما للقرآن ، وبالوسيلة التى تقرب .. وتبعد .. وتحدد ، مصائر الأفراد .. ينكر ابن تيمية عليها هذا انغلو فى تقدير الانسان ، وفى رفع مستواه الى مستوى الألوهية .

ويكاد يكون ما أنكره لوثر على الكثلكة .. هو نفس ما أنكره ابن تيمية على غلاة الشيعة ، وكذلك ما ادخله من « حرية » فى شرح الكتاب المقدس ، وفى شرح تعاليمه ، يشبه ما صنعه ابن تيمية من اقرار وضع « الاجتهاد » .. فى استنباط الأحكام .. وتفسير القرآن الكريم .

وقد أفضت عهود عصر النهضة الأوروبية الى تكوين جيل من المفكرين الأوروبيين ، مهد الى نشأة القضية الثانية فى التفكير الغربى ، وهى قضية : العلم والدين ، أو قضية العلم والايمان .

وكان أبرز هؤلاء المفكرين :

بيكون(١) ، وكامبانيلا(٢) ، وهوبز (٣) ، وديكارت(٤) من الفلاسفة الانجليز والايطاليين والفرنسيين .

فأكد هؤلاء فى تفكيرهم الفلسفى أهمية الجانب الانسانى ، والطبيعى .. فى مواجهته الجانب الميتافيزيقى ، وأثاروا التشكك فى القيمة العلمية لهذا الجانب الأخير ، ثم نادوا أخيرا بطرحه جانبا فى الاعتبار .

ثم جاء القرنان : الثامن عشر ، والتاسع عشر بعد ذلك ، وشحن التفكير الفلسفى فيهما بتمجيد الانسان لقيمته الانسانية فى الابداع والابتكار ، وبأحقيته فى الاستقلال استقلالا تاما ، فى تحديد مصير الانسان ، وتحديد نهجه وسلوكه فى الحياة ، وتحديد نظام حكمه ... وغير ذلك مما تفرضه الحياة نفسها على الانسان ، فى حل مشاكله ، أو فى تفسير الأحداث التى يواجهها.

وصحب تمجيد الانسان للانسان فى التفكير الفلسفى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. تمجيده لبحوثه التى استقل فيها بتجاربه واختباراته ، وبملاحظاته ، ومنطقه . واعتبرت نتائج هذه البحوث علما ويقينا .. يقابلها ما يصنعه الخيال والوهم.وهنا برزت قضية العلم والدين : أحدهما يمثل اليقين .. والآخر يمثل الوهم .. وانتقل الانسان من عبادته لنفسه على عهد العلمانية .. الى عبادة العلم ، أو أشرك العلم مع نفسه.. فيما يتجه اليه من عبادة واحترام .

كما لازم هذه العبادة الجديدة .. الكفر بدين الكنيسة ، وبدين الله فى أى مجتمع انسانى . وهنا ظهر عهد الالحاد الأيديولوجى فى المجتمع الأوروبى بعد عهد العلمانية .

وفى مقدمة الفلاسفة الذين مهدوا للالحاد الأيديولوجى أو صاغوه صياغة فلسفية :

---

(١) هو فرنسيس بيكون (Francis Bacon) (١٥٦١ــ١٦٢٦)

(٢) هو توماس كامبانيلا (Thomas Campanella) (١٥٦٨ــ١٦٣٩)

(٣) هو توماس هوبز (Thomas Hobbes) (١٥٨٨ــ١٦٧٩)

(٤) هو رينيه ديكارت (Renie Descartes) (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠)

بيركللى(١) ، ومونتسكى(٢) ، وهيوم(٣) ، وكانت(٤) ،وهكسلى(٥) ، وهيجل(٦) ، وكومت(٧) ، وفيرباخ(٨) ، وداروين(٩) ، وميل(١٠)،وماركس(١١) من الفلاسفة الانجليز ، والألمان ، والفرنسيين .

واذن : وجد طابعان للمجتمع الأوروبى منذ النهضة الأوروبية ، وسقوط مجتمع الكنيسة فى القرون الوسطى :

الطابع الأول ... هو الطابع العلمانى .

والطابع الآخر هو الطابع الالحادى .

وكلا الطابعان يميلان بالمجتمع الانسانى الى البعد عن الدين فى التوجيه. الا أن الأول منهما : ان عادى الكنيسة فهو لا يطالب بعدم التدين بالمسيحية فى المجتمع ، بينما الثانى يمنع فى معاداته للكنيسة التدين بالمسيحية ويطالب بالكفر بها ... كما يمنع التدين بأى دين آخر ، عدا ما اختاره هو من عقيدة وايمان .... عقيدة الايمان بالماركسية .

.... الطابع العلمانى يفصل بين سلطة الدولة وحدود هذه السلطة ، وسلطة الكنيسة ومدى هـذه السلطة ، قصـدا الى عـدم الاحتكاك بين السلطتين :

فللدولة « الحرية » : فى التفكير ، وفى السياسة ونظام الحـكم ، وفى الاقتصاد وتنمية رؤوس الأموال ، وللكنيسة : القوامة فى صلة الفرد بالله .. بحيث لا تتجاوز هذه الصلة دائرة الفرد الى فرد آخر معه فى مجتمعه .

والشعار الذى تردده « القوميات » : (الدين للديان ، والوطن للجميع) يعبر عن مدى الفصل بين الدولة والكنيسة ... ومدى استقلال كل منهما

---

(١) هو جورج بيركللى (George Berkely) (١٦٨٥—١٧٥٣)
(٢) هو مونتسكى (Montesqieu) (١٦٨٩—١٧٥٥)
(٣) هو دافيد هيـوم (David Hume) (١٧١١—١٧٧٦)
(٤) هو ايمانويل كانت (Imenwel Kant) (١٧٢٤—١٨٠٤)
(٥) هو توماس هنرى هكسلى (Thomas Henry Huxley) (١٨٢٥—١٨٥٩)
(٦) هو جورج فيلهلم فريدريش هيجل (George Wilhelm Friedrich Hegel) (١٧٧٠—١٨٣١)
(٧) هو اوجست كونت (Auguste Conte) (١٧٩٨—١٨٥٧)
(٨) هو لودفيج فيرباخ (Ludwig Feuerbach) (١٨٠٤—١٨٧٢)
(٩) هو شارلس داروين (Charles Darwin) (١٨٠٩—١٨٨٢)
(١٠) هو استيوارت ميل (John Stuart Mill) (١٨٠٦—١٨٧٣)
(١١) هو كارل ماركس (Karl Marx) (١٨١٨—١٨٨٣)

عن الآخر . لأنه شعار العلمانية يوم قام المجتمع الأوروبى بمحاولة الانقضاض على سلطة الكنيسة ، اذ كانت الصورة الأولى لهذه المحاولات : نشأة القوميات الأوروبية ، وتمسك كل قومية بتراب الوطن وخصائصه المادية .

فالقومية كانت الهدف البديل عن الله فى ربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض . اذ نزع سلطة الكنيسة يتم برفع الله عن أن يكون مركز الانتقاء . وعندئذ يحل محله « الوطن » . وبذلك لا يكون للكنيسة ولا للدين وضع فى المجتمع كمجتمع ، ويبقى اعتباره فى نفوس الأفراد فقط ، لاطمئنانها اذا ما ظلت تتمسك بالايمان به .

... الطابع العلمانى لا يعنى بالدين كما لا يعنى بالكفر به . يتجه الى اهماله والتغاضى عنه ، أكثر مما يتجه الى لفت النظر اليه ايجابا أو سلبا . ويرفع شعار الوطنية والقومية ، ويؤثر هذا الشعار يوم يتعارض اتجاه الدين مع المصالح الوطنية والقومية ، كما يراها رجال الحكم الوطنى فى قومية معينة .

ومن هنا ، كثيرا ما تهتز القيم الدينية فى مجتمع تسوده القومية فى سياسة الحكم . اذ قد ترى القومية فى سياسة الحكم مثلا أن تأخذ المصالح الواقعية أو بالمنافع المتبادلة بين مجتمع ومجتمع آخر ، رغم أن الأخذ بهذا الاتجاه فى سياسة الحكم قد يتعارض ومصلحة مجتمع ثالث تربطه مع أى من المجتمعين روابط دينية وايمانية .

وهنا ينشأ فى سياسة الحكم القومى ما يعرف : بالبراجماتزم . وهو اتجاه فلسفى يدفع الى الاقرار بواقعية ما يؤدى الى مصلحة أو منفعة ، حتى لو كان تصور الله نفسه يؤدى الى منفعة فهو عندئذ واقع وموجود فى نظرة هذا الاتجاه .

وكثيرا أيضا ما تهتز المعايير الأخلاقية التى يدعو اليها الدين ، اذا ما تعارض تطبيقها أهداف السياسة القومية فى الحكم فى تحقيق مصلحة قومية بين المواطنين ، أو فى دائرة الاقتصاد الوطنى .

وسياسة القومية ان كانت نتيجة لمذهب العلمانية ، فهى فى الوقت نفسه وسيلته العملية فى التطبيق .

وهكذا : خلقت العلمانية الأوروبية قوميات أوروبية عديدة . كما عملت هذه القوميات على اثارة الحروب العالمية والمحلية ، وتعديل الحدود بين وطن وآخر أكثر من مرة وفى فترات متقاربة . فضلا عما سببته من نظرات ضيقة أو قصيرة أوجدت الاعتزاز بالشعوبية ، وحملت الفكر الفلسفى على أن يوجد تبريرا لميزة شعب على شعب ، أو لميزة لون لبشرة الانسان على لون آخر منها ، واستغلال شعب لشعب واستذلاله واسترقاقه .

وهكذا :

● كانت النظريات الشعوبية أو العنصرية فى المجتمعات الأوروبية فى أوروبا أو فى أمريكا .. أو فى افريقيا .

● وكان تقبل الاستعمار الأوروبى للمجتمعات الافريقية والآسيوية بين الشعوب الأوروبية نفسها .

● وكانت الخلافات العنيفة بين الشعوب الأوروبية على استغلال الثروات الاقتصادية والبشرية فى افريقيا وآسيا .. أثرا للقومية العربية ، التى تمكنت فى المجتمعات الأوروبية بفضل الاتجاه العلمانى فى ايمانه بالأرض .. دون السماء ، واعتزازه بالانسان ... دون الله .

ومع أن الطابع العلمانى للمجتمع الأوروبى حاول أن يستأثر بالحياة العامة للمجتمع كلها ، فان الكنيسة لم ترض أن يظل نفوذها فى دائرة الفرد دون الزام فى صلته بها ، الا الزام الميل والعاطفة ، ولم ترض كذلك أن يظل نفوذها بعيدا عن الحياة العامة نفسها ، وقد كان لها من قبل الوجود الانسانى جميعه مجالا لممارسة السلطة والنفوذ .. باسم الله على الأرض .

ولذا أصرت على أن لا تنسحب من مجال الحياة العامة الا مكرهة ، والى حين ، تعود بعده لاستئناف النشاط من جديد فيها . فلم تنسحب من مجال التربية ، ولا من مجال السياسة ، ولا من مجال الاستثمار للمال أيضا . وشددت القبضة على الأسرة المسيحية فى قيام الزوجية ، وفى تعميد الأولاد ، وفى أداء رسوم العبادة ، وعند الوفاة .

واتخذت من صلتها العقيدية بالأسرة المسيحية وسيلتها الى التوسع فى مجال التربية والتعليم ، والى الضغط فى سياسة الحكم المحلى القائم ، والى النشاط فى جميع الأموال ، واستثمار الأوقاف العامة ، وبذلك مكنت للمنظمات الدينية التى نشأت فيها مثل : « الجزويت » و « الفرير » وكذا للبعثات الدينية العديدة من الرهبان والراهبات ، أن توسع نشاطها التعليمى والتبشيرى . كما مكنت لقيام أحزاب سياسية مختلفة من غير رجال الدين ، باسم الأحزاب الديمقراطية المسيحية ، تشارك فى سياسة الحكم بتوجيه الكنيسة ، وتساعد من رجال الدين الكاثوليك ، مساعدة أدبية ومادية ، عن طريق النفوذ الروحى لهؤلاء الرجال بين الكاثوليك فى كل مجتمع .

وكما يستخدم أعضاء الأحزاب الديمقراطية المسيحية الوسائل العصرية فى سياسة الحكم ، دفعا الى تحقيق مصالح معينة للكنيسة ، أو للابقاء على وجود الايمان المسيحى ، كذلك يستخدم رجال الدين فى مجال التعليم والتربية

فى المراحل المختلفة وفى المجالات المتعددة أحسن النظم دقة وأكثرها ايجابية فى تمكين الطلاب والطالبات من تحصيل المعـــرفة العلمية والتكنولوجية ، مع الاحتفاظ بقوة الايمان بالمسيحية والسلوك المسيحى ، كما تحدده الكنيسة .

وتعتبر هيئة التدريس فى الجامعات الكاثوليكية أينما كانت : فى الولايات المتحـــدة فى واشنطن .. أو فى الشرق الأقصى فى أندونيسيا بجاكرتا ، أو فى الفليبين بمانيلا .. أو فى كنـــدا بمونتريال ، أو فى أى مكان آخر ، فى مقدمة هيئات التدريس فى العالم ويمثل العلماء الكاثوليك مستوى رفيعا فى البحوث العلمية والخبرة الفنيـــة .

هـــذا بالاضافة الى الأندية المتعددة فى المجـــالات الأدبية والسياسية والاجتماعيـــة التى تحمل وصف الكثلكة ، الأمر الذى يدل على تخطيط واع للكنيسة الكاثوليكية فى مواجهتها لتحدى العلمـــانية ، وللالحاد الأيديولوجى بعـــدها .

والفاتيكان لذلك دولة عالميـــة ، وحكومته حكومة عالميـــة تباشر نفوذا سياسيا ، واجتماعيا ، وتربويا ... وفى كثير من الأحيان اقتصاديا ، على الحكومات المحلية فى أى مجتمع أكثريته كاثوليكية .

وبهذا التخطيط الكاثوليكى الواعى والتقدمى كسرت الكثلكة حدة التحدى العلمانى العالمى ، بل وأخضعته لتوجيهها ، فى كل مجتمع أكثريته كاثوليكية .

وعن تخطيط الكنيسة الكاثوليكية ، وعن نظامها فى رقابة التابعين لها ، اقتبست بعض المجتمعات المعاصرة نظام التخطيط فى مجالات العمل فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، ونظام الاستخبار فى الرقابة الخارجية على الأفراد فى داخل المجتمع ، أو فى خارجه .

وبهذا امتد نفوذ الكنيسة الى المجتمع المعاصر ، ولم يفن منذ سقوط عهد القرون الوسطى ، وبقى مزاوجا للنظـــام العلمانى السابق ، سواء فى القيادة السياسية ، أو التوجيهية والتعليمية .

وليس معنى بقاء نفوذ الكنيسة فى المجتمع المعاصر هو بقاء قوة المبادىء المسيحية فى التطبيق فيه وفى سلوك أفراده .. ليس معنى بقاء نفوذ الكنيسة فى المجتمع الغربى : سيادة الأخلاق المسيحية فيه ! .

انه منذ انفصال الدولة عن الدين ، ومنذ استقلال الانسان عن وصاية الكنيسة ، ومنذ مهاجمة الكتاب والمفكرين لنظـــام الكنيسة والتفكير الدينى بوجه عام ، خف وزن القيم المسيحية فى نفوس أفراد المجتمع ، ورأى الأفراد أنفسهم أنهم أصبحوا فى حماية سلطة أخرى غير سلطة الكنيسة ، تحميهم

من الاضطهادات وألوان التعذيب ، والنفى والتشريد ، ومصادرة الأموال أو تعريضها للتلف والنهب ، والقتل جملة .. ذكورا وإناثا وشيوخا وشبابا .. تلك الاضطهادات التى كانت تباشرها الكنيسة فى ظل سلطانها المطلق ، وفى نطاق نفوذها الذى لا تعقيب عليه ، يوم أن كانت لها وحدها السلطة فى القرون الوسطى .

وكل ما يمكن أن تفعله الكنيسة ، مع قيام العلمانية ونشأة الدولة الحديثة هو رفع أسماء المنحرفين عن نظامها وتعاليمها من سجل التابعين لها ، والتنديد بأعمالهم فى الاجتماعات الدينية ، واثارة المؤمنين بها لمقاطعتهم فى أية صورة من صور المقاطعة .

● وبالشعور لدى الأفراد برفع سلطة الكنيسة فى الجزاء الدنيوى نشأ الاحساس بـ « الحرية » فى التفكير ، وفى السياسة ، وفى استثمار المال ، وفى السلوك . وكانت الحرية الفردية هى ثمرة قيام العلمانية وأخذها الحق لنفسها فى حماية المجتمع كهيئة تنظيم الأفراد فى معاملاتهم ، وسلوكهم وفى جميع مجالات نشاط الحياة الانسانية .

● وعن الشعور بالحرية الفردية تولد الانطلاق ، وزالت الحواجز النفسية رويدا رويدا ، بحيث أصبحت حركة النشاط الفردى لا تحدها الا امكانيات الفرد وطاقاته وحدها .

● وعن ممارسة الحرية الفردية نشأ النظام « الديمقراطى » فى السياسة ، والتوجيه والتعليم ، والاقتصاد ، والسلوك . وهو نظام تقوم على أساسه الدولة ، وتستهدف تطبيقه وتحقيقه .

وبذلك اذا حقق اتجاه العلمانية الشعور بالحرية الفردية ، فالحرية الفردية نفسها أوجدت النظام الديمقراطى للسلطة الجديدة وهى الدولة . وأصبحت العلمانية والديمقراطية صنوان لا يفترقان .

والديمقراطية فى نظام الدولة ، أو مباشرة الحرية الفردية فى مجالات النشاط الانسانى ، أوجد فى مجال الاقتصاد نظام « المباشرة الحرة » أو « الاقتصاد الحر » كما أوجد فى مجال آخر معايير الحرية : فى التفكير ، أو التوجيه ، أو السلوك ، وأدى الاقتصاد الحر الى نظام الرأسمالية فى استثمار المال ..

وهنا برز ، بدلا من ثالوث الكنيسة من : الله ، وابن الله ، الروح القدس ، ... ثالوث الدولة من : العلمانية ، والديمقراطية ، والرأسمالية . وكانت ثلاثتها هى أصول الدولة الحديثة ، كما عد « التثليث » .. أقانيم المسيحية ، ودعائم النظام الكنسى .

واذا كان النظـــام الرأسمالى يمكن أن ينطوى تحت اســـم النظـــام الديمقراطى ، كما ينطوى تحته كذلك اسم : التفكير الحر ، والسلوك الأخلاقى الحر ، والأدب الحر ، والفن الحر ... فان أفراده بذكر خاص تحت عنوان خاص لما أصبح له من أهمية خاصة فى الدولة الحديثة ، تستطيع تحـــديد النظام الديمقراطى كله وتؤثر على ماله من نتائج . كما أصبح هذا النظـــام الرأسمالى بالفعل ـــ لهذه الأهمية البالغة ـــ يعتبر شعار الدولة العلمانية . وهى الدولة الحديثة التى أعقبت سقوط الكنيسة ، وظلت تباشر نشاطها حتى الآن فى وقتنا الحاضر ، فيما يسمى بمجموعة الكتلة الغربية .

وكان من الطبيعى أن يتغاضى نظـــام الدولة الحديثة عن التصرفات الأخلاقية فى السلوك ، لأنه لا يحاسب عليها الا بقدر ما يترتب عليها من أضرار تصيب أفراد المجتمع ، حسبما تنص تشريعات الدولة طبقا لأسس الديمقراطية . ونظام الدولة لذلك لا يسير فى نفس الخط الأخلاقى الذى ترسمه الكنيسة . فقد تكون هناك تصرفات لا تحاسب عليهـــا تشريعات الدولة ، بينما تعدها تعاليم الكنيسة انحرافات أو بدعا أو منكرات .

وهذا ما يوضح الفجوة بين بقاء نفوذ الكنيسة السياسى منذ كان لهـــا هذا النفوذ .. الى المجتمع العلمانى الحاضر ، بينما لا ترى فى واقع هـــذا المجتمع صورة من الأخلاق المسيحية الا رســـوم العبادة التقليدية تحت تأثير التنظيم البابوى .

الطابع الالحـــادى الأيديولوجى :

أما الطابع الالحـــادى الأيديولوجى فيأخذ خطوة أبعد فى خط الاتجـــاه العلمانى فى موقفه من الدين والكنيسة ، يستهدف من هذه الخطوة .. انكار الدين ويعلن تحديه ، ويبشر بالعقيدة الجديدة التى تحل محله . وهى العقيدة المادية التاريخية .

وتعتبر العلمانية مقدمة لنشأة الالحاد الأيديولوجى ، كطابع للمجتمع الأوربى ، منذ ظهور الماركسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

ولولا أن طابع كل منهما كان له سبيله الخاصة ، أدت الى تبلور نظام معين فى الحكم يختلف عن نظام الآخر ، لكانت الصلة بين الطابعين هى صلة التوائم والقربى . لأن كلا منهما يدعو الى تحدى الكنيســـة ، والى الحد من تدخل الدين فى شئون المجتمع ، أو من وجوده فى حياة الانسان .

والخطوة البعيدة التى اتخذها الالحاد الأيديولوجى فى موقفه ضد الدين هى : انكار قيمته كلية ، والدعوة الى عدم مهادنة رجال الدين ، والسخرية

منهم وانتهـــاك حرمتهم والتضييق على نشـــاطهم ، كى يسقط الدين وينتهى مصيره الى الزوال التام فى فاعليته فى المجتمع .

وبجانب اعلان السخط على الدين يدعو الاتجاه الالحادى الأيديولوجى كذلك فى الوقت نفسه الى الغاء القيم الخلقية ، لأنها تتفق فحسب واهـــداف البرجوازيين والرأسماليين فى المجتمع ! ، من الاستمرار فى ظلم «الكادحين» والاعتداء على حقهم فى الحياة ! . فهى تمثل الأخلاق الطبقية .. والدين الذى يحملها هو من أجل ذلك دين طبقى ..

وقد قدم م . ا . عبد اللاييف ، الأستاذ بجامعة حكومة دافستان التى تحمل اسم ف . ا . لينين ، والخبير فى العلوم الفلسفية تقريرا الى المؤتمر الذى عقد فى «ماجاشكالا» بالاتحاد السوفييتى عام ١٩٦٠ لبحث « موضوع : مخلفات الاسلام ووسائل التغلب عليها » بعنوان : « بحث تحليلى للمذاهب الاجتماعية فى القرآن » يذكر فيه :

« ان القرآن قد فسر تقسيم المجتمع الى طبقات متنافرة ، وسيطرة طبقة على طبقة أخرى ، والاستغلال الوحشى .. والرق .. على أنهـــا ظواهر طبيعية مستمدة من الله !!. كما أن القـــرآن اذ يؤكد أن كل قوة من الله ، ويطالب الناس بطاعة ولاتهم **انما يفرض على الطبقة المستغلة ايمانا بألوهية ظالميهـــم** » ! ..

وهذا نموذج من النماذج التى تسمى فلسفية وتحليلية وعلمية يوجهها الاتحاد العلمى الأيديولوجى الماركسى اللينينى الى الدين ومقاييسه الأخلاقية.

وهو اذ لا يرضى عن أخلاق الدين بدعوى أنها أخلاق بروجوازية لا يضع بديلا عنها . وانما يحتمى بما يسميه بقانون « التغير » فى السلوك الأخلاقى ، تبريرا لاســـتخدامه : « الانتهازية » ، « والميكافيلية » « والبراجماتية » فى الاعتـــداء والتآمر ، والغدر والخيانة ، فى ســـبيل تحقيق الحكومة العمالية وديكتاتورية الطبقة العاملة ، مما يسميه بالتقدمية .

وهذا الاتجاه الالحادى الأيديولوجى اذ يحاول تنزيل البروجوازيين ومن يسميهم بالرأسماليين فى المجتمع الانسانى الى مستوى « البروليتاريا » فى الأجور بدلا من أن يرفع هؤلاء الى مســـتوى أولئكم .. يجعل من أخـــلاق « البروليتـــاريا » كذلك معيـــار السلوك الخلقى . ولكن ما هى أخـــــلاق « البروليتاريا » ؟. لم يفصح عنها كارل ماركس . وبقى فحسب : أن ماركس نفسه كان بروجوازيا ، وعاش فى وسط برجوازى . فهل تحرر من ورائته ووسطه عندما فكر فى وضع قوانينه الفلسفية من أجل البروليتاريا .. مـــن أجل مستقبلهم ومصيرهم ... ومن أجل سلوكهم وأخلاقهم ؟؟ .

وفى سبيل انكار قيمة الدين كلية تنشط الفلسفة الالحادية ، أو ما يسمى بالالحاد العلمى ... فى تصويره ، فتعبر عنه :

● بأنه جملة من الصور التى تكونت عن طريق الخيال والوهم وترسبت فى نفس الانسان .

● وبأنه وسيلة للتخدير ، وعقبة فى سبيل العمل الايجابى ، وحائل دون مباشرة الانسان لطاقاته فى السعى فى الحياة وانتفاع بثمراتها وخيراتها ، عن طريق استخدام العقل الحر ، والكشف العلمى التجربى ، لأنه ينقل نظرة الانسان من الوجود الحاضر الى وجود مغيب لا يستطيع أن يدركه ببصره ، وان تصوره يتصوره بوهمه وخياله .

ولأنه كذلك يجعل قبلة العبادة موجودا اخترعه فى أساطيره ، لم يقم دليل واقعى على وجوده ، فضلا عن استحقاقه العبادة من الانسان ..

فـ « الله كائن أسطورى مخترع(١) :
(God a Mythical Invented Being)

وليس حقيقة مادية .

والآخرة ، وما رسمه الدين من نعيم وشقاء فيها ، لا تعدو الغاية منها : حمل الانسان التعس فى الحياة على قبول تعاسته ! والرضاء بمذلته ! وبالتالى حمله : على أن يتقبل الظلم والاعتداء فى وجوده ، ولا يسعى لردهما . لأنه آمن بالقدر .. وارتكن الى التواكل ..

والفجوة بين الغنى والفقير يسلم بها المؤمن بالدين ، ولا يرضى عنها بديلا ! لأنه اعتقد أنها فعل الله فى الأرض ! وما يملكه ازاء ذلك : هو أن يمد يده لتقبل العطاء ، ولكنه لا يستطيع أن يمدها للتغيير وتحقيق التوازن فى الأرزاق والمعايش فى المجتمع !! ..

ولكى يكون الانسان انسانا ويظل انسانا ، يجب أن يعيد تقييم ذاته بما يجعل هذه الذات هدفا أخيرا فى الحياة .. ليس بعدها هدف آخر . ومن ثم يجب أن يتوجه باحترامه الى نفسه ، وليس الى موجود خارج وجوده الأرضى .. يجب أن يتوجه الانسان الفرد بعبادته الى الانسان ككل .. الى الانسانية كلها ، وليس الى الله .. ويجب أن يترسم فى حياته ابداع الانسان وعظائم الأمور التى يأتى بها ، مما يكون دين الانسانية ، دون أن يترسم دين الله والكنيسة .

---

(١) دائرة المعارف السوفييتية ج ١٥ ، ص ٣٣٦ .

ويغير بذلك محراب العبادة ، كما يغير طريق السعى والعمل ، بما يحقق جعل الانسان والأرض التى يعيش فوقها هدفا أخيرا . فيكشف خصائص طبيعته ، وخصائص الوجود المادى الذى يكتشفها ..

وعن هذا الطريق يعلم ، من هو .

كما يعلم الواقع الذى يدور فيه ويحدد سلوكه وتصرفاته .

... ولذا يرى الالحاد الأيديولوجى : أن منزلة العلم أحق بالايمان من أى شىء آخـــر فى الوجود ، كمـــا يرى أنه : فى دائرة العلم جملة يملك علم الطبيعة الانسانية فى أحاسيسها وعلاقاتها .. قمة فروعه ، ويصبح ما عدا علم الاجتماع آنئذ .. فى خدمته ومقدمات ، تنتهى اليه (علم الاجتماع) .

خصومة أيديولوجية :

وعن التسلسل فى منطق كل من الأيديولوجيتين ، وعن ممارسة التطبيق لهما ، نشأت خصومة مذهبية حادة بينهما ، بعد أن مهد لهما أصل واحـــد ، وهو الاستقلال عن الكنيسة وعن توجيه الدين ..

فالحرية الفردية التى استخلصها نظام العلمانية من استقلال الدولة عن الكنيسة ، وصلت بالممارسة والتطبيق العلمى لها الى احتكار الرأى والفكر ، واحتكار السياسة ، والتوجيه ، واحتكار المال .

ومعنى الاحتكار فى أى من هذه الجوانب فى حياة الانسان هو الحد من الحرية الفردية لآخرين من جديد ، وفرض التبعية على من عدا المحتكرين فى المجتمع مرة أخرى ، وان كانت هذه التبعية فى صورة غير التى كانت عليهـــا على عهد الكنيسة فى القرون الوسطى ، وقبل قيام الدولة الحديثة ونظام العلمـــانية .

وكان لاحتكار المـــال الغلبة والســـيادة على مجالات الحرية الفردية الأخرى ، وأصبح احتكار المـــال هو المحرك لاتجاهات التفكير ، والسياسة ، والتوجيه . كما أصبح رجال المـــال هم العصابة التى تحكم وتوجه فى واقع الأمر داخل الدولة والمجتمع .. فى ظل النظام الديمقراطى الرأسمالى .

وأتاح التقدم الصناعى ، والتكنولوجى ، والتقدم العلمى فى وســـائل التجارة وتنشيط حركة المـــال ، الفرصة لأن يزيد الاحتكار للمال فى قوته وفى احكام الرقابة على أوجه النشاط الانسانى فى المجتمع .

ذلك لأن هذا التقدم فى صنوفه المختلفة ساعد على أن يكون تداول المال بين قلة قليلة من الأفراد . وهم الذين تغلبوا بأسلوب المنافسة فى الانتـــاج

وتداول السلع على غيرهم فى مجال الانتاج ، فحملوا غيرهم على بيع مصادر انتاجهم أو على ضمها فى وحـــدة انتاجية مع ما يملكون هم . وبذلك ضاق نطاق المشرفين على الوحدات الانتاجية فى الصناعة ، وقل عـــدد المصدرين والمستوردين فى التجـــارة ، وكذا المهيمنون على البنـــوك وشركات التأمين فى المـــال .

وأصبحت الحرية الفردية فى المجتمع العلمانى فى واقع الأمر لأصحاب رؤوس الأموال فى الصناعة ، والتجارة ، والبنوك وشركات التأمين ، كمـــا أصبحت التبعية لمن عداهم من رجال الفكر ، والسياسة ، والتوجيه فى الثقافة والتعليم . والدولة أصبحت أيضا فى خدمة رأس المـــال : عليها أن تكفـــل الحرية التامة للنشاط الصناعى :

.. فى تسويقه للانتاج الصناعى . وحصوله على المواد الخام .

.. وللنشاط التجارى فى ضمان وسائل النقل وحرية المرور فى الداخل والى الخـــارج .

.. وللنشاط المـــالى فى البنوك وشركات التأمين فى سعر الفائدة وضمان العائد . الى غير ذلك من الأسباب والدواعى التى تعين على ضمان الربح ، بل وعلى وفرته ، حتى ولو كانت وفرته على حساب الرعاية الاجتمـــاعية ، والصحية ، والتعليمية لعمال المصانع والشركات .. وحتى أيضا لو كـــان على حساب حياة شعوب أخرى ، كالشعوب التى تملك المواد الخام للصناعة، وتتسع مجالاتها كأسواق لتصريف المنتجات الصناعية للاستهلاك .

ولأن رأس المال أصبح يمارس الحرية الفردية وحده تقريبا فى المجتمع ، ولأن الدولة أصبحت تتكفل بضمان هـــذه الحرية الفردية لرأس المـــال فى الاستثمار والاسترباح .. عرفت ممارسة الحرية على هذا النحو فى المجال الاقتصادى بـــ « الاقتصاد الحـــر » .. وعرفت المباشرة ، كمذهب واتجاه باسم : الليبرالية .

وهذا المذهب فى الاقتصاد ان كان يساعد على جمع المـــال وتكديسه فى أيدى قلة قليلة فى المجتمع ، ويعين على تمكين هذه القلة وحدها من ممارسة الحرية ، فانه من وجه آخر يســـاعد على افقار الكثرة الكثيرة فيه ، وعلى الحيلولة دون مباشرتها الحرية الفردية فى التطبيق العملى ، بسبب الحاجة الى العمل والمـــال .

وجمع المال وتكديسه فى ملكية أفراد قليلين .. من شأنه أن يبعد الفرصة فى توجيه المـــال للمصلحة العـــامة ، ويحمل على بقـــائه فى دائرة المنفعة

الشخصية ــ سواء : أكانت منفعة مادية فى ترف ولهو ، أو بمنفعة أخرى فى جاه وممارسة سلطة ونفوذ سياسى .

واذا بقى الانسان بتصرفه فى دائرة المنفعة الشخصية .. فانه كثيرا ما يطغى بهذا التصرف وينحرف فيه . ومعنى الطغيان والانحراف هو الاعتداء على آخرين : ان فى حقهم ، أو فيما يجب نحوهم من صنوف الرعاية المختلفة .

وهذا بالاضافة الى أن الانحراف سيجر الى الاعتداء على من يمارسه نفسه اعتداء عضويا فى بدنه وصحته ، أو اعتداء نفسيا فى وقوعه تحت الشعور بالخوف والقلق ، بسبب المال : ان فى الحصول عليه .. أو فى فقده على السواء .

ولأن الحرية الفردية فى النظام العلمانى أوصلت الى الطغيان عن طريق رأس المال ، والى فنائها ذاتها وعدم وجودها فى واقع الأمر بالنسبة للأكثرية الغالبة فى المجتمع .. لم يشأ نظام الالحاد الأيديولوجى على عهد ماركس أن تكون الحرية الفردية هى النتيجة لاستقلال الانسان عن الكنيسة ، وابعاد الدين فى التوجيه وفى جميع مجالات الحياة للمجتمع . وانما عوضا عنها .. استهدف ماركس أن تكون « الحرية الاجتماعية » .. هى تلك النتيجة التى يجب أن يحققها هذا النظام .

وبداية الحرية فى النظام الالحادى الأيديولوجى ليست اذن الفرد .. وانما هى المجتمع ، ومن المجتمع الى الفرد ، وليس من الفرد الى المجتمع .

والحرية الاجتماعية تعنى فى الدرجة الأولى تحرر المجتمع من الاستغلال الاقتصادى ، وهو الاستغلال الذى يصحبه ــ أو يقوم على ــ سلب الحرية الفردية للأكثرية الغالبة فى المجتمع ، عن طريق جمع المال وتكتيله فى أيدى قلة قليلة من الأفراد ، وهم أصحاب رؤوس الأموال ، تطبيقا لنظام الاقتصاد الحر ، أو لمذهب الليبرالية .

وتحرر المجتمع من الاستغلال الاقتصادى يساوى فى نظر الالحاد الأيديولوجى القضاء على الرأسمالية واختفاءها من مجال النشاط الاقتصادى كله ... والقضاء على رأس المال بدوره لا يتم فى نظر الماركسية صاحبة النظام الالحادى الأيديولوجى هذا .. الا اذا حلت الملكية العامة محل الملكية الفردية .

و « بضدها تتميز الأشياء » .

وليس هناك فى نظر هذا النظام طريق آخر : من تربية أخلاقية

اجتماعية ، أو من اجراءات أخرى تحول دون تكديس المـال فى يد قلة ، ثم صيرورته الى الطغيان والاستغلال !

وبذلك اختلفت البداية فى كل من النظامين ، كما اختلفت الغاية كذلك :

- الحرية فى الاستقلال عن الكنيسة وعن الدين . . هدف النظامين معا .
- حرية الفرد أصالة ، وحرية المجتمع بالتبع . . هدف النظام العلمانى .
- حرية المجتمع أصالة من الاستغلال الرأسمالى ، وحرية الفرد بالتبع . . هدف النظام الالحادى الأيديولوجى وهو ما يعرف بالنظام الاجتماعى الماركسى .

واذا كانت الحرية الفردية تساوق النظام الرأسمالى ، والحرية الاجتماعية لا تتلاءم معه ، فقد أصبح بين العلمانية والالحاد الأيديولوجى ، أو بين النظام الديمقراطى الرأسمالى ، والنظام الاجتماعى الماركسى . . تناقض يستحيل معه وجود واحد منهما مع وجود الآخر فى مكان واحد ، أو على أرض واحدة وفى مجتمع واحد .

ومن هنا يطلب النظام الجديد ، وهو الماركسى عدم مهادنة النظام الديمقراطى الرأسمالى ، ويدعو الى استخدام كل وسيلة — مشروعة أو غير مشروعة ، أخلاقية أو غير أخلاقية — تعجل بتقويضه ، كى يحل محله فى قيادة المجتمعات البشرية ، بل ويحقق مجتمعا عالميا عماليا لا طبقية فيه !!

والنظام الديمقراطى الرأسمالى ، بحكم توزيع الثروة القومية بين القلة والكثرة ، يؤثر الأثرياء ويجعل منهم أرستقراطيين يحلون محل النبلاء والأشراف على عهد الكنيسة وسلطتها فى القرون الوسطى ، كما يفضل بعد هؤلاء الأثرياء . . العناصر المثقفة والقيادية فى الأجهزة الادارية والفنية فى المجتمع ، والتى تدير شئون الحكم والمؤسسات والشركات وانتى تعرف « بالبروجوازيين » .

أما عمال المزارع والمصانع . . فيأتون بعدهم فى المرتبة الثالثة فى الاعتبار الاجتماعى .

. . . بينما النظام الالحادى الأيديولوجى أو النظام الاجتماعى الماركسى ، بحكم مناوأته لأصحاب رؤوس الأموال ، ولمساعديهم من المثقفين والفنيين القياديين من البروجوازيين . . يؤثر الطبقة العمالية الجماهيرية . وهى الأكثرية التى تأثرت بالحرمان من المال فى حياتها الاجتماعية ، والتى كانت تحقد على الأثرياء بسبب تمتعهم وحدهم بالمال وبمزاياه فى رفاهية المعيشة ، وتمتعهم بقدراته فى كثير من الأحيان فى العبث والافساد .

... النظـــام المـــاركسى يؤثر « البروليتـــاريا » (Proletariat) وهم المعلمون الذين لا يملكون مالا ، وانما يملكون فحسب أولادا يقدمونهم الى المجتمع ... يؤثرهم بالوجود والاعتبار ، ويرى فى سلوكهم وعاداتهم وأخلاقهم المعايير الانسانية وحدها ، فهم النخبة المختارة !. ويمثلهم عمال المصانع ، ويلحق بهم عمال المزارع .

ومن أجل ذلك : اذا كان النظـــام الديمقراطى الرأســـمالى يمنح مزايا للأثرياء ، والبروجوازيين .. فالنظام الاجتماعى المـــاركسى يمنح تلك المزايا للعمال والجماهير . وعلى سبيل المثـــال : اذا كان الحـــكم فى النظام الأول لأصحاب رؤوس الأموال ومن يتبعهم من البوروجوازيين ، فانه فى النظـــام الاجتماعى المـــاركسى .. للعمال والجماهير .

... واذا كان الاذلال بسبب الحرمان من المال وفقد الرعاية الاجتماعية فى النظام الديمقراطى الرأسمالى .. من نصيب العمال والجماهير ، فانه الآن فى النظام الاجتماعى المـــاركسى من نصيب السابقين من أصـــحاب رؤوس الأموال والبروجوازيين بعدهم .

... ويجب أن يلحق هؤلاء وأولئكم بالعمال فى مستوى المعيشة ، وفى السلوك الأخلاقى ، وفى الاعتبار والقيمة .

ونتيجة لذلك : اذا كان الحقد فى النظام الديمقراطى الرأســـمالى من الأكثرية على القلة ، ومن المحرومين من المـــال على المالكين له ومن يعاونهم من البروجوازيين ، فانه فى النظام الاجتماعى المـــاركسى .. من القلة التى كانت تمـــلك المـــال ، على الكثرة التى كانت لا تمـــلك .. ومن المثقفين من البروجوازيين أو من الطبقة الوسطى ، على المعدمين الذين يقدمون الولد ، دون المـــال للمجتمع ..

وما بين النظامين من فجوة فى التطبيق العلمى هو :

نقـــل الملكيـــة .

.. ونقل الحقد : من مجموعة .. الى مجموعة أخرى فى المجتمع .

ويبدو لذلك : أن عامل « الانتقام » مصاحب لتقويض الرأســـمالية فى النظام الاجتماعى المـــاركسى .

... وليس السبب فى الاندفاع نحو التقويض .. اقتصاديا بحتا ، عن طريق تحويل الملكيات الفردية .. الى ملكيات عامة فيه .

... وليس كذلك سياسيا بحتا فى نقل سلطة الحكم من مجموعة الى مجموعة .

... وليس أيضا لصالح المجتمع صلاحية مطلقة هذا التحول الجذرى دفعة واحدة ، وبدون استعداد : سواء لمباشرة الملكيات العامة فى الاقتصاد القومى ، أو لمباشرة الحكم والرقابة من قبل الجماهير ، عند تطبيق النظام الاجتماعى الماركسى .

وقد أخذ هذا النظام الأخير اسم « الشيوعية » فى التطبيق الماركسى فى روسيا بعد ثورة سنة ١٩١٧ ، بينما لحق النظام الديمقراطى الرأسمالى الغربى اسم النظام الاستعمارى . لأن الرغبة فى توفير الربح ووفرته لرؤوس الأموال فى الصناعة والتجارة دفعت أصحابها الى استخدام السلطات السياسية ، والقوات العسكرية للمجتمعات الصناعية الأوروبية ، الى المغامرات فى احتلال الشعوب الأفريقية والآسيوية وفى أمريكا الجنوبية ، وحماية الاستغلال غير المشروع للثروات القومية والطاقات البشرية لهذه الشعوب ، سواء فى انتاج المواد الخام ، أو فى استهلاك المنتجات الصناعية فى الأسواق الأفريقية والآسيوية والأمريكية الجنوبية .

وبذلك كان النظام الديمقراطى الرأسمالى نظاما يؤدى الى استعمار الشعوب فى الخارج ، كما يؤدى الى استغلال الثروة العاملة فى الزراعة والصناعة فى الداخل .

وأصبح الحديث فى وقتنا الحاضر عن : الشيوعية ، والاستعمار ، أو عن اليسار واليمين ، كجبهتين متقابلتين فى الصراع العالمى .. أكثر من الحديث عن العلمانية والالحاد الأيديولوجى ، أو أكثر من الحديث عن النظام الاجتماعى الماركسى ، والنظام الديمقراطى الرأسمالى .

... كما أصبحت روسيا والصين تمثلان الجبهة الشيوعية واليسارية فى مواجهة أمريكا والكتلة الأوروبية الغربية كممثلة للجبهة الاستعمارية واليمين .

... وان كانت روسيا تختلف عن الصين فى وسائل العنف والتخريب فى تقويض الرأسمالية ، كما تختلف أمريكا عن الكتلة الغربية الأوروبية فى تأييد الاستعمار العسكرى ، وبقائه كوسيلة للاستغلال الصناعى والتجارى .

.... على أن الفجوة التى رآها كارل ماركس بين النظام الديمقراطى الرأسمالى آنذاك ، وما تصوره عن النظام الاجتماعى وحكومة «البروليتاريا» فى تخطيطه الفلسفى والاقتصادى ... لم تبق على نحو ما كانت عليه فى ذلك الوقت .

فلم يبق النظام الديمقراطى الرأسمالى فى خدمة الصناعة والتجارة

وخدمة رأس المال على العموم ، كما يطلب أصحاب رؤوس الأموال ، وانما أخذ لنفسه الحق فى التوجيه والتدخل لصالح العمال وأصحاب الدخل المحدود ، وفى توفير أنواع الرعاية والخدمات فى التعليم ، والمساكن ، والمعاش ، والتعويض عند العجز بالاصابة فى العمل ، أو عند المرض ، أو عند البطالة .. وغير ذلك مما يتطلبه المجتمع المعاصر من صنوف الخدمات العامة .

ولكن لم يكن تدخله تدخلا راديكاليا . وانما بقدر ما تدعو اليه الضرورة.

.... كما أن النظام الاجتماعى الماركسى ، فى التطبيق الشيوعى فى روسيا أخذ يعدل نفسه بعد التجارب الاجتماعية والاقتصادية التى مرت به فى قرابة الخمسين عاما تقريبا على قيامه ، وبعد التقدم الصناعى والتكنولوجى الواسع المدى . وأصبح ينتقل من اليسار المتطرف ومن العداء البغيض للرأسمالية الى « التعايش السلمى » والمهادنة لنظام الحكم الديمقراطى الغربى .

ولكن ما بين النظامين من اتفاق فى سياستهما وفى موقفهما من الدين لم يطرأ عليه تغيير ، الا اذا كان هذا التغيير هو التشدد فى ابعاده عن التوجيه وعن النفوذ الرسمى فى المجتمع .

أبعاد الدين وآثاره :

ان المجتمع الغربى الذى استقل عن الدين ، وأخذ لنفسه الحرية الفردية فى النظام العلمانى .. كان فى حيطة مستمرة من وضع قيود يخشى من وضعها الحد من هذه الحرية ، ومصادمة الأساس الذى قام عليه النظام ذاته .

والنظام الرأسمالى كان وليد هذه الحيطة فى عدم وضع القيود فى ممارسة الحرية الفردية فى مجال الاقتصاد ، رغم أن ذلك أدى الى نتائج سيئة أضعفت الروابط الاجتماعية فى المجتمع ، ودفعت الى قيام نظام مضاد يستهدف القضاء على النظام الديمقراطى كله ، ورغم أن بعض العوامل التى ساعدت على بنائه ، وهل حل الربا واستخدامه استخداما متوسعا فيه ، من المبادى التى تعارضها الكنيسة الكاثوليكية .

وعلى هذا الغرار اتجهت الحرية الفردية فى التشريع ، وفى معايير السلوك والأخلاق ، وفى التعليم والتوجيه . وخرجت كلها بعد جيل عن الرقابة الدينية فى السلوك ، وعما يسمى بالضمير الدينى فى التصرفات .

والضمير الدينى يتكون على أساس من : الخشية من الله ، وهو فى واقعه ضمير انسانى يحرص على أن يدفع صاحبه الى السلوك الانسانى المستقيم وفقا لما له فى صفاته كمعبود ، وفى رسالته فى وحيه كدين ، يرسم الخط المعتدل فى علاقات الأفراد ، ويحول دون الظلم والاعتداء ، وينشد السلام ويدعو للايمان بالاسلام .

والمجتمع الغربى الآخر الذى استقل عن الكنيسة وعن الدين معا ، وأخذ لنفسه الحرية الاجتماعية فى النظام الماركسى الاجتماعى ، اتجه كلية فى نظامه الى المجال الاقتصادى ، مستهدفا القضاء على الرأسمالية ، والى قيام حكم عمالى جماهيرى على أنقاض الاقطاعيين ، والرأسماليين والبروجوازيين: ان فى فلسفته ، وان فى الوسائل العملية التى تدعو اليها للتعجيل فى تحقيق هدفه ، وهى وسائل الاضراب ، والتخريب ، والانقلاب ، بجانب الغدر والخداع ، وهى وسائل « مصلحية » و « نفعية » .. أكثر منها أخلاقية انسانية .

فالنظرة الماركسية ترى فى معايير السلوك القائمة فى المجتمع ، وفى القيم الأخلاقية ، أنها لا تصلح للبقاء فى المجتمع العمالى المنشود ، لأنها معايير طبقية ، وقيم طبقية ، تشجع على بقاء وضع المجتمع الطبقى ، وتحفظ كيان الطبقتين الرأسمالية والبرجوازية على السواء ، دون أن تعين طبقة البروليتاريا .. على استخلاص حقوقها ، ووضعها المرجو فى حياة المجتمع ..

ولذا : كما تنكر الدين ، وترى أنه لا ينبغى أن يسمح به طويلا ، منذ تهديده بخلق « ثنائية » فى الولاء والطاعة فى عالم أصبح كل شىء فيه لقيصره ، اذ لا شك أن الله منافس جدى فى هذا الولاء ، حتى أن التفكير فى : أنه موجود .. غير محتمل — تنكر كذلك الأخلاق والمعايير والقيم الأخلاقية ، ومن ثم تبيح ما يعود على طبقة البروليتاريا بالنفع ، ولو كان فيه الضرر والايذاء للآخرين ... ولو كان فيه الموت والفناء لمن عداهم .

ومن ثم : هذا المجتمع الماركسى لا يبتعد عن الدين بانكاره وانكار الايمان بالله فقط ، بل كذلك يبتعد بالسلوك الواقعى للأفراد الذى ينتظمهم به .

ومن أجل ذلك : اذا ابتعد المجتمع الديمقراطى الرأسمالى عن الدين تدريجيا ، عن طريق ضعف الضمير الدينى ، فابتعاد المجتمع الماركسى عنه مصاحب لقيامه وفرض نظامه .

وعلى كل حال : أصبح مجال التدين والتطبيق الأخلاقى للدين ضيقا ، ويزداد ضيقا كلما وقفت حركة التخلق الدينى عند الأجيال التى آمنت به ، ولم تتجاوزها الى الأجيال بعدها فى ظل أى من النظامين .

وهنا يقال : ان الدين بوقوفه عند عهود وأجيال معينة .. قد تخلف عن السير قدما فى مسير ركب الحياة الانسانية ، وأضحى حقيقة تاريخية ، وليس ظاهرة تصاحب المجتمع المعاصر ، كأية ظاهرة من ظواهره ، التى تحدد طابعه : كالتقدم العلمى ، والصناعى ، والتكنولوجى .

... وهنا يقال أيضا : ان الدين أدى دورا فى بعض مراحل التاريخ الانسانى ، هو لا يؤديه اليوم . وهذا ما يقال فعلا الآن .

... ولكن لا يقال عن الدين : انه لم يؤد دورا فى المجتمع المعاصر ، لأنه يعجز عن أدائه .. كما يروق للتوميين العلمانيين ، والماركسيين اللينيين أن يتصوروه ويصوروه ، ولكنه لا يؤديه لأنه حيل بينه وبين أدائه : اما بسبب الجمود الفكرى لرجاله ، أو بسبب القوة المادية والأدبية التى يدفع بها كل من النظامين للمجتمع الغربى القائم اليوم .. الى تثبيت وضعه وسيطرته .

وتشكلت فى المجتمعين القائمين اليوم — المجتمع الديمقراطى ، والمجتمع الماركسى اللينينى — ظواهر سلوكية مشتركة فردية ، وجماعية ، تعبر عن البعد عن الدين وعن الأخذ بالمعايير الأخلاقية المسيحية .

ولأنها ظواهر مشتركة يحاول بعض المعنيين بالسلوك الانسانى رد هذه الظواهر الى أسباب قائمة هنا وهناك فى أى مجتمع منهما ، ويحددون ، كسبب لها على وجه الخصوص .. الوضع الاقتصادى الذى أدى اليه التطور الصناعى .. وهو ذلك الوضع الذى مكن للفرد ذكرا أم أنثى .. الاستقلال الاقتصادى ، وذلك عن طريق تهيؤ فرص العمل بأجور مناسبة : كل ساعات العمل اليومية ، أو بعضها .

ولكن فى التحليل الأخير لهذه الظواهر السلوكية المشتركة .. نجد أنها تعود الى ضعف الوازع الدينى ، أو الى عدم وجوده كلية بين الأجيال الجديدة ، قبل أن تعود الى الاستقلال الاقتصادى ، وسهولة الكسب المادى ، وتوفر ظروف الرخاء .... تعود الى تخلف الدين عن السير فى ركب حياة المجتمع ، ووقوفه عند الحد الزمنى والبشرى ، الذى بلغه .. يوم كانت للكنيسة سلطة .

- شاع فى المجتمع المعاصر :
- الادمان على المسكرات بين الكبار والصغار .
- وشاع تعاطى المخدرات كالهروين ، والكوكايين بين الشابات والشبان من طلبة الجامعات وتلاميذ المدارس الثانوية ..

● وأصبح هذا وذاك يكون مشكلة اجتماعية خطيرة فى البلاد التى تتمتع بالرخاء الاقتصادى فى المعيشة كالولايات المتحدة وانجلترا .

● وشاع انتشار السحاق بين النساء ، واللواط بين الرجال فى المجتمع الغربى المعاصر ، بحيث أصبح ينادى بعض ذوى الرأى باباحة اللواط بين البالغين عند اتفاقهم ، بشرط أن يكون فى غير علانية ، وقد تقدم بالفعل بعض أعضاء حزب المحافظين فى انجلترا الى مجلس العموم البريطانى فى دورته (فى نوفمبر سنة ١٩٦٥) بمشروع قانون يتضمن هذه الاباحة ، بعد أن تحسن جو مجلس اللوردات للموافقة على التعديل فى دورته السابقة (هيرالد تريبيون فى ١٩٦٥/١٢/٢٩) .

● وانتشر الاتجار بعرى أجسام النساء ، وفى أوضاع شائنة مع الرجال ، تباع فى صور مفردة ، أو تعرض فى أفلام سرية ، وفى استديوهات لما يسمى الموديل (Model) وفى السياحة على شواطىء معينة .

● وشاع الزنا بين المتزوجين والمتزوجات ، كما شاعت المعاشرة الجنسية قبل الزواج بين الشبان والشابات منذ سن مبكرة فى مرحلة المراهقة . مما يعرف بالتجربة الجنسية قبل الزواج .. وأصبح ذلك عرفا فى المجتمعات الصناعية فى روسيا ، وأوروبا ، وأمريكا .

● ان السلطة المختصة بمشكلة المراهقين والمراهقات .. تقول(١) فى تقرير رسمى :

● أن حمل البنات غير المتزوجات ، وفى غير أمل لهن فى الزواج بمن حملن منه .. يتزايد فى الولايات المتحدة الأمريكية .. وأن متوسط السن للأمهات غير المتزوجات .. هو السادسة عشرة من العمر .

● وتحدثت الدكتورة (Bermice G. Sachs) فى ندوة طبية ، فذكرت : أن ستين فى المائة من البنات اللاتى يعقدن قرانهن الآن فى سن السابعة عشرة فأقل .. حوامل يوم زفافهن .

● أن الشباب اليوم تائه ، وفى وضع اختلطت عليه الأمور . فهو لا يدرى : أيؤثر الرشاقة .. أم الثرثرة .. أم الزواج ؟.

● أن الرسم البيانى للنشاط الجنسى بين الشباب منذ الحرب العالمية الثانية يوضح أن هذا النشاط منذ ثلاث سنوات تقريبا .. فى صعود وتزايد مستمر .

---

(١) هيرالد تريبيون فى ١٦ مارس سنة ١٩٦٦ تحت عنوان : حمل غير المتزوجات يتزايد فى الولايات المتحدة .

● أن شباب اليوم يفعل الآن أساسيا ما كان يفعله الآباء والأمهات.. ولكن يفعلان فى تبكير عنهم .. مما كان سببا لوقوعهم فى حيرة واضطراب .

● كما انتشر تعاطى حبوب منع الحمل بين طلاب وطالبات المدارس الثانوية ، والجامعات والكليات ، وأصبح يوصى المتخصصون من الأطباء والاجتماعيين باباحة تعاطيها ، دون التقيد بالعلاقة الزوجية ..

● كما انتشر الاجهاض للأجنة بين الفتيات الصغيرات . وأصبح يطالب باباحتها على نمط ما فى المجتمع الشمالى الأسكندنافى ، والمجتمع اليابانى ، لا كوسيلة لتنظيم النسل ، ولكن كوسيلة لاعطاء فرصة واسعة للتجربة الجنسية .

● وزادت نسبة الطفولة غير الشرعية زيادة تعادل نسبة الطفولة الشرعية فى بعض المجتمعات بين المتزوجات وغير المتزوجات . وأصبحت الزوجة أما لولد غير شرعى من رجل آخر ليس زوجها ، ولدته فى فراش الزوجية وفى العلاقة الشرعية القائمة .

● وشاعت الأمراض التناسلية السرية شيوعا ذريعا يشكل خطرا داهما على المجتمع المعاصر وعلى الأجيال البشرية القادمة . وكان من العوامل الرئيسية فى انتشارها يسر الحصول على حبوب منع الحمل ، بعد ذيوع انتاجها ورخص أثمانها (Contraceptive Pill) .

وهذا بالاضافة الى خروج كل من النظامين فى الحكم عن روح السلام والتسامح ، التى تطالب بها المسيحية ... الى روح الاستغلال الاقتصادى والبشرى من جانب المجتمع الديمقراطى فى صورة استعماره المختلفة ... والى روح التخريب والتآمر ، والغدر والخيانة ، من جانب المجتمع الماركسى اللينينى فى صور استيلائه على الحكم العالمى وتحطيم الرأسمالية الغربية .

أصبحت مذاهب : المصلحة البرجماتية (Pragmatism) .. والمنفعية .. والمكيافيلية ، طرق السلوك فى المجتمع المعاصر ، ديمقراطيا ، أو ماركسيا لينينيا ، وأصبحت المادية واقع التفكير ، كما أصبحت الدافع فى توجيه السياسة فيه .

والروحية التى تمثلها الكنيسة فى المجتمع الديمقراطى ... روحية منعزلة ، وحرفة يحترف بها رجال الدين .

والالحاد الايديولوجى الذى توصى به الماركسية اللينينية .. يساعد على اقتلاع كل جذر للروحية والمثالية فى مجتمعها ، ويساند الجانب المادى وحده ، فأصبحت الحياة لا ترى الا من هذا الجانب ، وأصبح الانسان لا يقيم الا بسببه .

... واسقطت من أجل هذا وذاك ... كل القيم الدينية ، والفلسفية المثالية ، فى تخطيط المجتمع المعاصر ، وتحول الاقتصاد فيه الى « وثن » يعبد ، كما يرجع اليه فى الخلق والحياة ، ويرد اليه الموت والفناء !..

* * *

الفصـــل الثانى

المجتمع الإسلامى والغزو الأوروبّى

وقد تعرض المجتمع الاسلامى فى آســـيا وافريقيا للطابع الأيديولوجى للمجتمع الأوروبى ، سواء الحديث منه فى القرن التاسع عشر ، أو المعاصر فى القرن العشرين ، ولم تكن لديه كذلك مناعة فى رفضه وتحديه ... وعدم تقبله .

فتعرض للغزو الأوروبى من أجل الصناعة الغربية ، منـــذ أثمر عهـــد النهضة الأوروبية ثمرته فى التحـــرر والخلاص من ســـلطة الكنيســـة ، وفى استرداد الانسان الأوروبى حرية الحركة فى التجارة وفى شئون المـــال على العموم ، وحرية التفكير والتوجيه السياسى .

وفقد المناعة فى المجتمع الاسلامى ضد قبول أيديولوجية أجنبية عن نظام الاسلام .. بسبب الضعف الفـــكرى ، والتفكك الاجتمـــاعى ... وبسبب الطوائف والمذهبية ، وتعدد السلطنات والدويلات التى قامت على أســـاس شـــعوبى أو مذهبى فى هـــذا المجتمـــع أو فى ذاك ، فى أى مكان على أرض اسلامية .

وكان الوضع فى البداية قبل الغزو تربصا من جانب المجتمع الصناعى الأوروبى بالمجتمعات الاسلامية ، وانقضاضا عليها من جانب ... بينما كان استسلاما من أى مجتمع اسلامى ، تعرض للتربص والانقضاض ، وقبـــولا للوصاية الأجنبية والاستغلال الأوروبى ، من جانب آخر(١) .

---

(١) احتلت بريطانيا : الهند فى سنة ١٨٥٩ ، ومناطق الخليج العربى =

ان المجتمع الأوروبى ابتدأ يقوى ، بعـد التحرر الفكرى ، والتوجيهى والسياسى من نفوذ الكنيسة ، وازدادت قوته بالتقدم العلمى فى البحـوث والكشوفات ، ثم بالتقدم الفنى والتكنولوجى فى الصناعات .. وزادت ثرواته وطاقاته على الانفاق والخدمات بفضـل الرواج الاقتصـادى . وهو رواج مضاعف . مرة بسبب زيادة الانتاج فى كمه ، ونوعـه .. للتقـدم الآلى والميكانيكى فى الصناعة .

... ومرة ثانية بسبب اتساع السوق الاستهلاكية لهذه المنتجـات الصناعية مع ارتفاع أثمانها ، فيما يعرف بالبلاد المتخلفة ، أو المسـتعمرات الأوروبية فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

... ومرة ثالثة بسبب رخص الخامات الأولية للصناعة الأوروبية التى تصدر من هذه البلاد والمستعمرات ، ويعود رخصـها الى وفرتها ، ثم الى رخص الطاقة البشرية التى تعمل فى انتاجها ، أو التنقيب عنها وشحنها الى مصانع أوروبا .

وكلما قوى المجتمع الأوروبى وتفوق صـناعيا .. كلمـا زادت رقعة استعماره فى القارتين الأفريقية والآسيوية ، وكلما زادت قبضته على ما تم استعماره منهما ، وكلما اتسع نفوذه السياسى والاستغلالى فيما تسلط عليه فيهما .

... وبالتالى كلما زاد ضعف المجتمع الاسـلامى الذى وقع تحت سلطة الاستعمار ، واسـتقلاله ، وتوجيهه ... وزاد ضعفه فى التبعية والتقبـل للقيادة الأوروبية الاستعمارية ..

= وجنوب شبه الجزيرة العربية فى سنة ١٨٤٠ ، ومصر فى سنة ١٨٨٢ ، والسودان فى سـنة ١٨٩٨ .

واحتلت فرنسا : الجزائر فى سنة ١٨٤٥ . وتونس فى سنة ١٨٨١ . والمغـرب فى سـنة ١٩١٢ ..

واحتلت هولندا : جزر الأرخبيل الاندونيسية تباعا منذ عام ١٩٠٣ .

واحتلت ايطاليا : طرابلس الغرب فى سنة ١٩١١ .

الا أن روسيا احتلت القرم قبل القرن التاسع عشر فى سنة ١٨٧٣ . وسيطرت باشرافها على المجتمعات الاسلامية فى وسط آسيا وهى : أزربيجان. كازاخستان ، أوزبيكستان ، توركيستان ، كزيخستان ، سيطرة تامة فى القرن التاسع عشر ، ولم يسلم من الاحتلال الأوروبى سوى : اليمن ، الحجاز ، نجد. وسط تركيا .

تقبل الطابع العلمانى :

ويوم أن تحرك المجتمع الأوروبى لاستعمار القارتين الأفريقية والآسيوية، وعلى الأخص فى القرن التاسع عشر ، من أجل تقـــدم الصـــناعة الأوروبية وازدهار الاقتصاد الغربى .. كان فى قمة مجده بما أنجزه من الفصـــل بين الكنيسة والدولة ، واستقلاله بالسلطة الزمنية وبالحرية الفردية فى التفكير ، والتوجيه ، وبالحرية السياسية .. كما كان فى أشد الأوضاع حرصـــا على اتجاه « العلمانية » كمثال للانسانية .

فاستصحب الاستعمار معه هذا الاتجاه بما يستتبعه فى الحـــكم ، والتوجيه ، والتشريع ، والاقتصاد فى المجتمع الاسلامى الذى يتمكن منه .

وما يستتبعه فى الحكم هو : النظام الديمقراطى .. والحزبيةالسياسية .. والقوة اللادينية .

... وما يستتبعه فى التوجيه والتشريع هو البعد عن الدين ، وعن معايير السلوك : « وهذه المعايير فى المجتمع الاسلامى هى ما يمثله الفقه من الأحكام الشرعية » .

... وما يستتبعه فى الاقتصاد هو : النظام الرأسمالى ، أو الاقتصاد الحر البعيد عن توجيه الدولة ، فضلا عن تدخلها فيه .

وباستصحاب الاستعمار اتجاه العلمـــانية ، ومحاولة تطبيقه فى المجتمع الاسلامى ، وهو مجتمع يغـــاير فى خصائصه .. وتاريخه .. وواقعه .. المجتمع الأوروبى .. اضطر هذا الاستعمار الى أن يسلك طريقا يمكنه من هذا التطبيق . وهو طريق عزل المجتمع الاسلامى كلية عن ماضيه ، وعن تراثه العقلى ، والروحى ، والتوجيهى ، والسلوكى .

فاذا ما تم عزله أصبحت قيادته ميسرة ، وطيعة للمستعمر ، وبالأخص للأجيال التى تنشأ فى ظل هذه العزلة .

وكان الطـــريق الذى سلكه للعزل والاحيلولة دون رؤية المـــاضى .. مزدوجا :

مرة بتمجيد التقدم العلمى الأوروبى فى نظر المسلم ، وابراز خصائص الحضارة الغربية المـــادية أمامه ، ممثلة فى الصناعة ، والرخاء الاقتصادى ، وتوفر الخدمات والتوسع فيها : ان فى التعليم ، أم فى الاسكان ، أم فى سبيل المواصلات العـــامة ، أم فى التيســـير فى التغلب على الصعوبات فى الاقامة والسفر على السواء .

.... ومرة أخرى بالتزهيد أو التنفير من تراث الأمة الاسلامية بالتقليل من شأنه ، والحط من قيمه ، وابراز عدم فاعليته أو عدم صلاحيته لحياة الانسان ، وحياة المجتمع الانسانى فى الوقت الحاضر .

أما تمجيد الحضارة الأوروبية والتقدم العلمى والصناعى .. فكانت وسيلته نقل انتاجها المادى الى المجتمعات الاسلامية المستعمرة أو المحتلة فى افريقيا وآسيا ، واستخدام هذا الانتاج فى تيسير الحياة فيه والتغلب على صعوبات المشاق التى تصحب عادة الحياة الانسانية المتخلفة أو البدائية . وذلك ليكون شواهد مادية : ترى وتختبر فى التطبيق وفى واقع الحياة .

وأما التزهيد أو التنفير من تراث الأمة الاسلامية فى مراحله المختلفة فكان سبيله الادعاء :

أولا — بأن ما مر فى تاريخ الأمة الاسلامية يرجع جميعه الى مبادىء الاسلام وتعاليمه ذاتها ! . وعلى الخصوص ما كان منه ضعيفا وهزيلا ، فى التفكير ، وفى التنظيم الادارى والسياسى ، وفى الفقه والتشريع . وفى شيوع الفرقة المذهبية والطائفية والشعوبية ، والجهل والأمية فى قرونه الأخيرة !!

ثانيا : بأن الاسلام نفسه كدين لم يكن وحيا الهيا ، كما لم يكن وضعا وضعه رسول الاسلام مستقلا به عن المسيحية !. وانما كان تلفيقا منها ومن عقائد أخرى ، جعله لا يرتفع به الى مستوى الانسانية ، وما يجب فى علاقات الأفراد ببعضهم من : محبة ومودة ، ذلك المستوى التى تؤكده المسيحية باعتقاد ألوهية عيسى وبأبوة الله له !.

فلم تكن هناك فى المسيحية فجوة بين الله الأب والاله الابن .... ولم يكن عيسى الابن والاله : الا مثلا للتسامح ، والتراحم ، والتواد . ولذلك ليس الله بالنسبة للانسان جبارا ولا قاصرا !.. وانما هو عطوف محب . وانسانية الاله ، والهية الانسان .. تبعد أية صورة من صور القسوة بين الله والانسان !.

وتبنى ذلك الادعاء علماء اللاهوت المسيحى . وتوفر فريق منهم من الذين يدرسون العبرية : لغة ، وتاريخا ، وثقافة ، فى دراساتهم للكتاب المقدس ، على دراسة الاسلام ، والمجتمع الاسلامى ، والأمة الاسلامية والعربية .. بما يجعل هذه الدراسة تعطى النتائج السابقة ولو على حساب المنهج العلمى الذى يدعى سلوكه فى هذه الدراسة .. وهو منهج الأمانة فى النقل والعرض ، والفصل فى التقييم : بين القرآن والسنة الصحيحة كأصل للاسلام ، والتطبيق العملى من جانب المسلمين ، لما اشتمل عليها هذا المصدر الأصيل من مبادىء وتعاليم .... هذا التطبيق . الذى هو عرضة للتغيير ، والانحراف ، والبعد فى تصويره للأصل المجمع عليه .

وهكذا كانت الدراسات الاسلامية فى بحوث المستشرقين الأوروبيين فى المعاهد والجامعات الغربية .. هى دراسات سياسية توجيهية .. استهدفت معاونة الاستعمار ، ورجال الصناعة الغربية ، والنظام الرأسمالى الغربى على العموم ، فى التمكن من فرض التبعية على المسلمين ، وبقائهم فى رضا أو فى استسلام .. دائرة التبعية الأوروبية السياسية ، والاقتصادية والتوجيهية .

ووزارات الخارجية الأوروبية ، ودور الصناعات الكبيرة ، وبيوت الأموال فى الغرب كانت تشجع هذه الدراسات بتيسير التمويل ، وبالمعاونة على الرحلات الى الشرق الاسلامى ، ثم محاولة تصدير هذه الدراسات ذاتها من جديد الى البلاد الاسلامية المحتلة :

... اما فى صورة وطنيين يعطون منحا دراسية ، أو توفدهم حكومات بلادهم لتلقى هذه الدراسة فى الجامعات الأوروبية والعودة بها الى بلادهم ، على أن يتصدروا قيادة التوجيه المختلفة .

... أو فى صورة كتب ، وعلماء غربيين يقومون بالتنظيم فى ادارات التعليم ، والتشريع ، أو بالتدريس فى المدارس والمعاهد العليا ، وعلى الأخص فى معاهد المعلمين والمعلمات .

وابتدأ اتجاه العلمانية الغربى يأخذ موضعا لقدميه فى المجتمعات الاسلامية المستعمرة ، ويحاول التوطن على أرض المسلمين ، كما يحاول أن يدفع الاعتقاد بالاسلام ، كنظام صالح للحياة الانسانية فى اى مكان وفى أى وقت ... من نفوسهم ، أو يضعفه فيها على الأقل ...

ابتدأ يأخذ مكانه فى المدارس الجديدة أو المدارس المدنية ، فى مقابل المعاهد الدينية والمدارس القرآنية .

... وابتدأ يأخذ مكانه أيضا فى التشريع والقضاء ، واستحداث نظام للتقاضى على أصول ومبادىء أخرى ، قد تتعارض مع العرف والتقاليد ، أو مع المبادىء الاسلامية الموجودة فى المجتمع الاسلامى .

.. وابتدأ ، يأخذ مكانه فى السياسة ، والعمل على قيام قوميات تبعد الروابط الأصيلة فى المجتمع من : دين ، ولغة فصحى ، من أن تكون ضمن عناصرها .. بينما يبرز فيها « التراب » ... واللهجات العامية الشائعة ... والعرف المزق ، والعادات التى كونها ضعف الأمة الاجتماعى ، وأثر فيها ركودها الفكرى ، والسياسى ....

.. وابتدأ يأخذ مكانه فى نظام الحكم ، ويقيم الديمقراطية التى تتأسس

على تعدد الأحزاب ، وتعدد المجالس النيابية والتشريعية ، وعلى الحرية الفردية الطليقة فى التملك والاقتناء ، ومباشرة المال وتوجيهه ، دون قيد الا قيد المصلحة الشخصية .

ونالت « القومية » اللادينية حظا وفيرا من عناية الاستعمار ، كما لقيت ترحيبا فى القبول من الوطنيين أنفسهم الذين نصبوا أنفسهم للقيادة فى مجتمعاتهم .

.. أما من جانب الاستعمار فلأن هذه القومية اللادينية تكاد تكون العنوان البراق والخادع لاتجاه العلمانية . ولأن قوتها أو ضعفها سيؤثر ايجابا أو سلبا على نفاذ هذا الاتجاه أو عدم نفاذه فى علاقات الأفراد بالمجتمع، ثم فى علاقات أجزاء الأمة الاسلامية بعضها ببعض .

فطالما تؤكد القومية اللادينية « التراب » فى الترابط ، وترعاه وحده ، دون دين أو لغة لكتابه .. فسينتقل الدين حتما ، ومعه لغته الفصحى ، من مكان الصدارة الى الخلف ثم يتوالى هذا التأكيد يدخل الدين رويدا رويدا فى الماضى القريب ، ثم بعد ذلك فى الماضى البعيد ، وهو مجال النسيان بالنسبة للأجيال الناشئة .

.. وأما من جانب الوطنيين فلأن هذه « القومية » اللادينية واجهة مميزة لهم عن قومية أخرى أو عن واجهة أخرى ، ولو كانت هذه الواجهة الثانية لا تختلف فى ولائها عن المضمون الذى تدل عليه الواجهة الأولى ، الا من حيث رقعة المكان الجغرافى . ومن شأن الصفات أو الواجهات المميزة لوجود معين خاص أن تثير اهتمام الذين يعنيهم هذا الوجود الخاص ... تثير اهتمامهم بها كأمل يرجى تحقيقه ، ليكون موطن اعتزاز وفخر .

.. ثم من زاوية أخرى تثير « القومية » اللادينية لعاب الوطنيين فى بقعة من الأرض محدودة ولو تحديدا مصطنعا ، لأنها ستتيح فرصة أوسع لبروز بعض الأفراد فى أى مجال من مجالات الحياة ، سياسيا ، واقتصاديا ، وفكريا ، واجتماعيا . اذ كلما تعددت القوميات ، كلما زاد عدد السياسيين المحترفين فى المجتمعات التى تميزت عن طريق القومية الخاصة وزاد عدد رجال الفكر ، والاقتصاد والمال ، فى صفوف متساوية فى هذه المجتمعات.. لا من حيث جوهر المستوى ، ولكن من حيث الشكل والصورة المرئية .

وسيكون من آثار التركيز على هذه القوميات الخاصة صعوبة المحاولة فى تجميع المجتمعات المتشابهة فى اطار واحد . فالقومية العربية ستصطدم بالقوميات الليبية ، والتونسية ، والجزائرية ، والمغربية فى شمال افريقيا ،

كما تصطدم بالقوميات السورية ، والعراقية ، والأردنية ، والكويتية والسعودية ، واليمنية ... فى الشرق ، والسودانية فى الجنوب .

وعمل الاستعمار من أول لحظة على تفتيت الأمة الاسلامية الى « قوميات » تأخذ أسماء الأمكنة الجغرافية فى آسيا وافريقيا التى تقيم عليها مجموعات معينة من المسلمين . حتى اذا ما قويت هذه القوميات فى شد الوطنيين اليها ، أمكن أن يوجه بعضها ضد بعض .. ويومئذ يكون الاسلام قد تحرك الى خلف الصفوف ، وولى المسلمون عنه الأدبار ، وترك لهذه القوميات تأخذ مكانه فى الدفع وفى التوجيه فى المجتمع .. على نحو ما برز الآن من : القومية العربية .. والقومية الافريقية .. والقومية الفارسية .. والقومية الاندونيسية .. فى مجالات العالم الاسلامى .

ولذا يوم نادى جمال الدين الأفغانى بـ « الجامعة الاسلامية » فى القرن التاسع عشر عام ١٨٧٩ ، وبعودة الرباط الاسلامى الى قوته فى وحدة المسلمين وجمع كلمتهم ضد الاستعمار الغربى ، لم يهاجمه الكتاب الغربيون الذين يعملون فى خدمة الاستعمار وحدهم .. وانما ارتفع ضده فى قوة : صوت « النعرة القومية » اللادينية فى أجزاء عديدة من وطن الأمة الاسلامية . كما سفه رأيه من كانوا يعرفون بعلماء الاجتماع من الغربيين والشرقيين على السواء ، ووصفوا رأيه بعدم الواقعية !! لأنه ـ هكذا كانوا يقولون ـ : يستحيل أن تقوم حكومة اسلامية واحدة ، مع هذه الفجوات الواسعة من الطائفية ، والمذهبية ، والشعوبية ، واللغوية !!

... ويزيد هؤلاء فى القول مستطردين : على أن الاسلام وقت قوته على عهد أبى بكر ، وعمر ، لم يستطع أن يرفع فجوة الشعوبية بين الفرس والعرب ويصل بالمؤمنين به الى مستوى حضارى واحد ، أو قريب بعضه من بعض ، على نحو ما يحكيه كتاب « الفتنة الكبرى » فى عهد عثمان !!

الصراع الأيديولوجى :

ونداء جمال الدين الأفغانى الى « الجامعة الاسلامية » .. يدل على وجود حقيقى « للقومية » العلمانية على أرض الأمة الاسلامية .. كما يدل على بداية الصراع بين الاسلام والعلمانية الغربية فى صورتها التى تعبر عنها، وهى صورة « القومية » اللادينية(١) .

---

(١) يمثل القوميين السوريين : انطون سعادة ، اللااسلامى .
ويمثل القوميين العرب : جورج حبش ، وقسطنطين زريق اللااسلاميين، ومن كتاب القوميين العرب : اللاعربى الأصل : ساطع الحصرى .
كما يمثل الاتجاه الماركسى منذ أن تسربت الى البلاد العربية : ميشيل عفلق ، اللااسلامى .

ولكنه لم يكن صراعا أيديولوجيا متكافئا . رغم أن الاسلام هو العقيدة الأصيلة للمسلمين : لها قوتها فى الدفع والتماسك ، ورغم أنه نفسه نظام للحياة : لا يجعل فيها انقساما بين قوة روحية وأخرى زمنية ، ولا انفصالا فى الانسان بين روحه وبدنه . ثم بالاضافة الى ذلك : ان العلمانية الغربية أمرها طارىء ودخيل على المجتمع الاسلامى ، وكان يجب أن تكون مكروهة لكراهة الاستعمار نفسه . ومن أجل ذلك كان يجب أن تكون كفة الاسلام راجحة فى هذا الصراع !.

ولكن الاسلام نفسه كان ضعيفا فى الايمان به من المسلمين قبل الغزو الغربى وفرض سلطان الاستعمار على أجزاء عديدة من أرض الأمة الاسلامية، ولذا قبل المسلمون ولاية الأجنبى عليهم فى غير صعوبة تذكر ، فى طريق استيلائه على السلطة عليهم . نعم كان هناك بعض أساليب الخداع من الاستعمار فى الاستيلاء على السلطة . ولكن ذلك لا يمنع من وجود هذه الحقيقة فى المجتمع الاسلامى ، وهى : ضعف الايمان بالاسلام بين المسلمين .

.. ثم الى جانب ضعف الايمان بالاسلام بين المسلمين .. ضعف علماء المسلمين واستسلامهم الى « التقليد » فى تقييم الرأى الاسلامى ، وفى عرضه ، وفى فهمه .

ومن هنا ظهر أمر الرجوع الى القرآن والسنة الصحيحة فى فهم مبادىء الدين ، فى نداء جمال الدين الأفغانى الى « الجامعة الاسلامية » كضرورة لا مناص منها ، كى يبعد عامل : « التقليد » فى مواجهة الاسلام فى الصراع ضد العلمانية الغربية .

.. كما تجددت دعوة ابن تيمية فى الأفق الاسلامى . وهى الدعوة الى طرح التقليد ، لجمع شتات الأمة الاسلامية من جديد على دين الله ، وليس على مذهب فقهى ، أو مذهب كلامى معين ... وليس على أساس طائفى أو شعوبى عنصرى . فظهرت فى محيط العالم الاسلامى بعد دعوة محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغانى : دعوة محمد على السنوسى فى برقة ، وعبد الحميد بن باديس فى الجزائر ، وعثمان بن فودى فى غرب افريقيا .

وقوى أمر « القومية اللادينية » فنفذت الى المناهج فى التعليم.ووضعت قوانين فى التشريع وأقيمت نظم للقضاء ، وأخرى للحياة السياسية ، وفقا لمنطق العلمانية .. وفى حدود الخصائص « الترابية » وحدها لدائرة القومية .

وكما فصل أمر الدين فى ذلك كله واستبعد استبعادا كليا أو جزئيا .. فصل أمر الاقتصاد القومى وحيل بينه وبين الوطنيين ، الا للعملاء والمأجورين،

وجعل وقفا على الصناعة الأوروبية وعلى الاستغلال الأوروبى فى تزويد هذه الصناعة بالخامات الأولية ، وفى ترويج استهلاك منتجاتها فى الأسواق المحلية .

ولم يكن المستعمر يستطيع فصل الاقتصاد القومى لصالحه خاصة ، ويستثمر المال فيه لمنفعة الصناعة الغربية وحدها فى المجتمع الاسلامى — أى مجتمع من مجتمعاته — قبل أن يبعد الدين ، واللغة الوطنية فى التوجيه وفى بقية الجوانب الرئيسية فى قوام المجتمع وتماسكه .

.. لأن المحافظة على الاعتقاد بالاسلام ، كدين ، فى المجتمع الاسلامى معناها : بقاء الوعى قويا بالشخصية الاسلامية المستقلة للمجتمع ... وبقاء الايمان بالأيديولوجية الاسلامية قويا كذلك فى قلوب أفراده .

اذ قوام النظام الاسلامى فى تحديد صلة مجتمع المسلمين بمجتمع آخر لغير المسلمين .. هى عدم قبول وصاية هذا الغير عليه ، ثم مقاومة سلطته ان فرضها عليه بالمكر والخديعة ، أو بالقوة المادية ، مع رد اعتدائه على الجرمات للأفراد وهى حرمات : النفس ، والمال ، والعرض .

والمسلمون طبقا لمبادىء الاسلام مطالبون بأن لا يمكنوا الأجنبى عنهم من شىء فى أراضيهم يعينه على القوة والتفوق فى السيادة عليهم ، فضلا عن التمكن منهم واستذلالهم :

١ — ففى شأن عدم قبول وصاية الغير على المسلمين يقول القرآن الكريم : « **ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم** »(١) .

٢ — كما يحذر من الأمان وعدم أخذ الحيطة من الأعداء ، فيما تذكره هذه الآيات القرآنية :

« **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق** »(٢) .

« **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، والكفار .. أولياء** »(٣) .

« **يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم** »(٤) .

« **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله** »(٥) .

---

(١) آل عمران : ٧٣ (٢) الممتحنة : ١ (٣) المائدة . ٥٧
(٤) الممتحنة : ١٣ (٥) المجادلة : ٢٢

٣ ــ وفى شأن مطالبة المسلمين برد الاعتداء من الغير عليهم .. يناشد القرآن الكريم المسلمين بأن يجمعوا قواهم ويحتملوا فى سبيل القضـــاء على أعدائهم .. حتى يصلوا الى نصر مبين . فيقول :

« كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا .. ولا ذمة ، يرضـــونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، انهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن الا .. ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون »(١) .

« قاتلوهم .. يعـــذبهم الله بأيـــديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صـــدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتـــوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم »(٢) .

ويقول أيضا :

« يا أيها الذين آمنوا : اذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشـــلوا ، وتذهب ريحكم واصبروا ، ان الله مع الصابرين »(٣) .

.. بينما المستعمر يريد أن يســـتغل وهو مطمئن ، ويغتصب الثروة القومية وهو صاحب أمر ونهى مطاع ، ويوجه وهناك قبول لتوجيهه . ولا يهتم ذلك كله الا فى غيبة الايمان بالاسلام ، أو فى وجود تشويه فى التصوير لمبادئه ، وخفـــة لقيمـــه فى قلوب التابعين له .

ولكن رغم قوة « القومية » العلمانية فى المجتمعات الاسلامية ، وتنشئة جيل أو أكثر على أساس منهـــا .. فان الدفع الاســـلامى انتقل من الخلف واللاشعور ودخل منطقة « الشعور » بين الأفراد من جديد عند قيام حركات التحرير ضد الاستعمار ، التى أثارها جمال الدين الأفغانى فى مصر والهند منذ سنة ١٨٧٩ ، ثم فى بقية البلاد الاسلامية تباعا .. بعد ذلك .

.. وعاد تكتل العاطفة الدينية ، وحماس الرابطة الاســـلامية فى تجارب الحركات التحريرية ، على بعد ما يفصل بينها من حدود وحواجز ، اصطنعها المستعمر .

وشهد القرن التاسع عشر فى نهايته مع بداية القرن العشرين ، الى الستينيات منه موجات فى تيار الشعور القومى تستند الى مبادىء الاســـلام

---

(١) التوبة : ٨ ــ ١٠ .
(٢) التوبة : ١٤ ، ١٥ .
(٣) الانفال : ٤٥ ، ٤٦ .

فى كتاب الله ، ودخلت هذه الموجات فى معنى : « الجهاد » فى سبيل الله . كفريضة على المسلمين فى ابعاد فتنة الكفر ، والظلم ، والاعتداء ، التى تهددهم بالفناء وتهدد دينهم بالزوال .

اذ ليس هناك وراء الاستعمار ، ووراء استغلاله لمصادر الثروة القومية والطاقات البشرية للمسلمين فى غير شفقة منه ، وفى غير حياء وخجل فى أسلوبه ، وفى وحشية الحيوان الشره فى التهامه .. من كفر بالقيم الانسانية وبمبادىء الدين ، ومن ظلم فى ازهاق أرواح الناس بالباطل ، ومن الاعتداء على الكرامات والحرمات الفردية والجماعية ، التى طالب الاسلام بمنعها وردها ان وقعت فى غير حدود للتضحية بالنفس والمال والولد فى سبيل ازالتها .

وكان لعلماء المسلمين ، ولطلاب العلم الاسلامى فى المعاهد الدينية ، والمساجد ، دور القيادة فى استنكار الاستعمار وفى مقاومته بين الوطنيين ، فى أى مجتمع اسلامى ، شيوخا وشبانا ، وعمالا وموظفين . وكانت المساجد هى الساحات والأندية التى تتجمع فيها القوى الوطنية لتنظيم التعبير عن مطالبة الاستعمار بالجلاء ، وبترك البلاد مستقلة عن نفوذه .

وكان القرآن وآياته .. هو مصدر الالهام والحماس واثارة العواطف ضد الغزاة المستعمرين .

وعندما انتقم الاستعمار من الوطنيين ، بسبب استنكارهم لوجوده على رؤوسهم ومطالبتهم اياه بالرحيل .. انتقم أولا من أولئكم الذين يحملون رأى الاسلام ويعرفون بالانتساب اليه فى صفوف الشعب ، وهم العلماء والطلاب فى المعاهد الدينية : ان فى الحجز فى المعتقلات لفترة أو فترات ، تطول وتقصر ، وان فى تعذيب ، وان فى تفويت كثير من المصالح الشخصية عليهم .

ولكن هذه العاطفة الدينية الشعبية فى الترابط والتكتيل التى ظهرت قوية فى مقاومة الاستعمار وفى استنكار وجوده .. كانت عاطفة مؤقتة ، لم تستند الى تخطيط منظم قائم بالفعل فى صراع الاسلام ضد العلمانية الغربية، وضد من يحملها ويعمل على تمكينها من المستعمرين الغربيين فى المجتمع الاسلامى . وانما كانت كعاصفة من الرياح هبت فى غير الاتجاه الأصيل لطبيعة المناخ ، وتسببت عن تغير طارىء فى الجو ، تزول بزوال سببه .

.. لأن الضعف الفكرى الاسلامى لم يتراجع فى خط انحداره ، ولم تقم بعد : حركة احياء لمبادىء الاسلام فى المجتمع الاسلامى ، تستطيع أن تقف فى ثبات .. فى وجه الضغط القومى العلمانى ..

فكل ما كان فى حصيلة الفكر الاسلامى آنئذ .. هو تفسيرات للاسلام ولنظامه ، تحمل على العزلة عن الحياة وأحداثها ، وتدور فى فلك الافتراض ان أرادت أن تمد لنفسها الزمن فى التفكير ، أو تبقى فى مرحلة مرت على الأمة الاسلامية ، وليست ذات اتصال وثيق بماضيها الأمجد البعيد ولا بكاشفة للغد القريب .

وتلك حصيلة من المعرفة ان شاركت فى الهاب الحماس الوطنى المؤقت ضد الاستعمار .. لا تضيء الشعلة لاكتشاف قيمة الاسلام فى حقيقة أمره فى بناء المجتمع وتماسكه ، ولا لكشف القناع من جانب آخر عن العلمانية الغربية وما ترمى اليه فى تقويض الاسلام وتفتيت الأمة الاسلامية .

ومن أجل ذلك لم يلبث أن ظهر من جديد نفوذ العلمانية الغربية فى المجتمع الاسلامى .. اثر الاستقلال السياسى ، وقيام الحكم الوطنى ، وبعد أن هدأت العاصفة الحماسية للعاطفة الدينية التى هبت مطالبة به فى وجه الاستعمار ..

وهذا ما يشبه اليوم فى المجتمع الأندونيسى من حماس عاطفى للشعور الاسلامى ضد الشيوعية والشيوعيين ، بعد محاولة الانقلاب الفاشلة فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٦٥ ، فانه عقب أن يهدأ هذا الحماس لا يبعد أن تعود الشيوعية فى اندونيسيا من جديد ، ويعود حزبها وتكتلها ، ويعود صراعها للاسلام ولمبادئه . لا لقوة أيديولوجيتها فى ذاتها .. وانما لضعف السند الذى يسند المبادىء الاسلامية ، رغم اعتناق الشعب كله للعقيدة الاسلامية .. مضافا الى هذا الضعف الداخلى : ضغط القوى الخارجية التى تساند الأيديولوجية الماركسية اللينينية فى تسربها للمجتمعات الاسلامية .

الحكم الوطنى بعد الاستقلال :

وساعدت عودة العلمانية الغربية الى قوتها ونفوذها فى المجتمع الاسلامى بعد استقلاله السياسى .. طبيعة الحكم الوطنى فيه .

فقد سلم المستعمر الحكم فى المجتمع الاسلامى ، قبيل اعلان الاستقلال وعلى أثر اعلانه ، لفريق من الوطنيين ، هم أقرب الى اتجاهه ، سواء بحكم ميولهم وتنشئتهم التى نشأوا عليها فى المدارس والمعاهد ، ذات الاتجاه العلمانى ، أو بحكم المصالح المشتركة بين المستعمرين السابقين . وهى مصالح تستهدف استمرار تحقيق غايات الرأسمالية الأوروبية فى الاقتصاد القومى للمجتمع ، وفى الوقت نفسه .. تستهدف تحقيق منافع شخصية لأصحاب الحكم الوطنى : من مال .. أو سلطة .. أو جاه .

... يضاف الى ذلك : أن النظام السياسى للديمقراطية الغربية ، وهو نظام يعتمد على تعدد الأحزاب السياسية .. أوجد تنافسا بين الوطنيين بعد الاستقلال فى التطلع الى الحكم واعتزاز بجاهه ، والانتفاع بنفوذه .. ومن شأن هذا التنافس أن يجر الى نتيجتين حتميتين :

أولاهما : الصراع الحزبى ، والتقاتل فى سبيل الوصول الى الحكم .

وثانيهما : عدم التشدد فى المصالح الوطنية الحقيقية ، احتفاظا بعلاقة طيبة مع صاحب النفوذ الفعلى فى المجتمع ، وهو فى التحليل الأخير .. يرجع الى رجال الصناعة والمال فى أوروبا وأمريكا . ويمثلهم فى المجتمع الاسلامى بعد الاستقلال .. سفراء الدول الغربية ، ومندوبو الشركات الصناعية ، والتجارية ، والمالية .. من الوطنيين والأجانب على السواء .

ومن ثم : يكون الحكم الوطنى ، بعد الاستقلال ، عنوانا ليس له مدلول واقعى . وهو واجهة وشعار أكثر منه حقيقة موجودة .. ويكون رجال الحكم الوطنى بعد الاستقلال أكثر الوطنيين ضعفا ، لأن لهم مصالح شخصية وراء الحكم ، ولا يباشرونه الا بقدر ما يحققون هذه المصالح لأنفسهم . فان تعارضت مصالحهم الشخصية مع المصالح العامة الوطنية .. ضحوا بهذه الأخيرة فى سبيل تحقيق ما لهم هم .

وقوة رجال الحكم الوطنى من بين الأحزاب السياسية لا تبدو الا : فى كبت الشعور الوطنى ازاء مصالح الوطن الحقيقية ، والا فى طرد الوطنيين المعارضين أو المقاومين لحكمهم ، وتتبعهم واضطهادهم . لأن هذا الكبت ، وهذا الاضطهاد والتتبع يتفق ومصلحة أصحاب النفوذ الحقيقى فى المجتمع ، وهم المستعمرون السابقون ، ورجال الأعمال والمال والصناعة المستغلون للاقتصاد القومى .

... بينما يبدو ضعف رجال الحكم الوطنى بعد الاستقلال على أشده ، عندما تطلب الأمة العودة الى تراث المجتمع الروحى والثقافى ، وقيمه وتقاليده فى : التوجيه ، والتشريع ، والتعليم .. يبدو ضعفهم على أشده عندما تطلب الأمة احلال الاسلام فى التوجيه ، واحلال لغته العربية الفصحى فى البلاد التى تتكلمها فى التعبير والحديث والتسجيل فى الدواوين ، محل العلمانية الغربية ، أو محل اللغة الاجنبية أو اللهجة المحلية ، أو عندما تطلب ادخال الدين ، كمقوم أساسى ضمن مقومات « القومية » .

وتشتد جراتهم على الاسلام ، أكثر من جراة رجال العلمانية الغربية يوم دخلت المجتمع الاسلامى مع الاستعمار الغربى ، وحاولت طرده وابعاده

منه .. تشتد جرأتهم عليه فى غير فهم لمبادئه وفى غير اكتراث لايمان المواطنين به .

ويوصف المطالبون بالاسلام ، على عهد الحكم الوطنى بعد الاستقلال فى التوجيه والتشريع ، والتعليم ، بالتزمت أو بالتخلف ، تنفيرا لمن يتبعهم من الاستمرار فى تبعيته اياهم !

وربما تكون هناك ثغرة ضعف فى جانب هؤلاء المطالبين بالاسلام من رجاله ، هى : أنهم لا يستطيعون عرض المبادىء الاسلامية بحيث يجدون فيها حلولا للمشاكل المعاصرة والمتجددة . لأنهم يرددون النص المنقول فى فترة معينة من فترات التفقه الاسلامى ، دون الاحتكام الى المبادىء العامة ذاتها التى يتضمنها القرآن والسنة الصحيحة ، وذلك بحكم ركونهم الى : « التقليد » وعدم استخدامهم : « الاجتهاد » الذى يعد العامل المحرك فى تكييف الأحداث والمشاكل المتجددة بالكيفية الاسلامية .

ومن هنا لا ترتفع مطالبتهم بالاسلام فى التوجيه ، والتشريع ، والتعليم .. الى مستوى الاقناع ، الا على أساس انه تراث الماضى فقط ، وخصيصة المجتمع الاسلامى .

واذن تولى الحكم الوطنى فى هذا الجو من التنافس الحزبى السياسى ، ومن ارضاء الأجنبى . لا يساعد قطعا على تغيير أسلوب الحكم ونظامه .. لأن أقل ما يتعرض له المتصدى للتغيير ولاعادة بناء المجتمع على أسسه السليبة .. هو تفويت الحكم عليه سواء : بفعل المعارضة ، أم بمشاركتها لأصحاب النفوذ الحقيقيين ، وهم المستغلون للاقتصاد القومى من الأجانب . والمتصدى الحكم عندما يتولى أمره يتولاه لذاته ولآثاره التى تعود عليه بالمنفعة الشخصية .

ومن هنا : يستمر الحكم الوطنى فى أى مجتمع اسلامى بعد استقلاله ، فى اتجاه العلمانية الغربية التى تبلورت : فى القومية اللااسلامية ، وفى النظام الحزبى السياسى الديمقراطى ، وفى الاقتصاد الرأسمالى ، وفى التشريع اللاوطنى أو الغربى ، وفى التوجيه الفردى الحر المطلق .

ويتميز هذا الحكم الوطنى بعد الاستقلال عن حكم ما قبل الاستقلال .. بالمعارضة الواضحة للاسلام ولتوجيهه، وباستهجان اقامة حكم سياسى وادارى على أساس اسلامى ، وبالغلو فى التمكين لطريق العلمانية ، وبالسخرية فى كثير من الأحيان بالقيم الاسلامية ، وبالفجور أحيانا فى الانحراف عن الحكم الاسلامى .

وكتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » سنة ١٩٣٧ يعطى هذه الصورة المرجوة للحكم الوطنى فى مصر بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ .. فى وضوح تام .. بل ويطلب أن تكون التبعية للغرب فى كل جانب من جوانب الحياة المصرية بعد الاستقلال ، تبعية مطلقة فى الخير والشر ، والحلو والمر ، والصالح والفاسد ، لا يحدها تاريخ الماضى منذ الفتح الاسلامى ، ولا رابطة العروبة فى الجوار ، ولا طبيعة المكان الافريقى الذى يعيش فوقه المصريون .

على أن هناك عاملا آخر فى كون الحكم الوطنى عقب الاستقلال السياسى ، بعيدا عن أن يكون حكما مرتكزا على أساس من الاسلام ، هو : أن الذين يتولون الحكم من الوطنيين يستحيل عليهم أن يتصدوا لاعادة البناء الاسلامى فى المجتمع . لأنهم بعيدون عن الصورة الصحيحة عن الاسلام . وذلك بحكم التنشئة العلمانية من جهة ، وبحكم ما آلت اليه مفاهيم القيم الاسلامية فى التطبيق فى واقع المجتمعات الاسلامية المعاصرة من جهة أخرى . فقد تحول كثير من مفاهيم هذه القيم .. الى معانى الضعف دون القوة ، أو الى الخرافة دون الاستقامة الرشيدة .

والوطنيون الآخرون الذين كانوا فى مقدمة الحركات ضد الاستعمار من أجل الاستقلال ، وهم أصحاب الفكر الاسلامى .. قد أبعدوا أنفسهم عن تولى الحكم الوطنى ، بعزلتهم عن بناء الحياة الحديثة فى أوضاعها المتجددة ومشاكلها العديدة ، وبعدهم عن ادراك أجهزة الحكم وما تتطلبه من امكانيات على الأقل فى الوقت الذى استقل فيه المجتمع . وأبعدهم الاستعمار أيضا أيام حكمه بتأكيد عزلتهم ، وباعلان عدم صلاحيتهم للحياة الجديدة التى تسير فى ظله !! وهى الحياة المدنية الحديثة . أو الحياة الغربية .

وعن هذا وذاك من العوامل : تكونت فى أنفس هؤلاء عقدة النقص، فتراجعوا عن التنافس مع غيرهم فى تولى الحكم ، وتكون لدى الآخرين صورة عدم أهلية أولئكم للادارة الحكومية ، أو حتى لمباشرتهم التعليم فى المدارس والمعاهد الحديثة !.. فصدوهم عن أن يكون لهم شأن فى الحكم ، واستجابوا هم أنفسهم لهذا الصد ، ورضوا بأن يكونوا أتباعا ، بعد أن كانوا الرواد والقادة .. رضوا بأن يكونوا من المخلفين ، بعد أن كانوا فى مقدمة المجاهدين .

الصراع الثلاثى الأيديولوجى :

وما أن ابتدأت المجتمعات الاسلامية المستقلة(١) يزداد عددها بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٨ ، وما أن أخذ الصراع بين الاسلام

---

(١) استقلت تركيا فى ١٩٢٣ ، ومصر (من الوجهة الشكلية) فى=

والعلمانية الغربية يشتد ويعنف على أرض المجتمع الاسلامى الذى استقل وباشر الحكم فيه نفر من الوطنيين .. حتى دخلت مجال الصراع على أرضه أيديولوجية ثالثة .... هى الأيديولوجية الماركسية اللينينية الالحادية .

ووضح وجودها فى صراع ثلاثى بعد الحرب العالمية الثانية التى انتهت فى ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، وذلك بفعل نظام الشيوعية الدولية التى شاركت نظام العلمانية الغربية فى أوروبا وأمريكا النصر فى هذه الحرب . وعادت عليها المشاركة فى النصر بيسر التسرب الى المجتمعات الأفريقية والآسيوية ، التى ارتبطت قبلا بالاستعمار الغربى ، وبنظامه العلمانى والديمقراطى فى : الحكم ، والتوجيه ، والاقتصاد .

... بجانب الغنائم المادية ، وهى البلاد التى حولتها الى نظام شيوعى مما تعرف اليوم : بالكتلة الشرقية ، وهى بلاد البلقان وبولندا والمانيا الشرقية .

... ثم بجانب النفوذ السياسى العالمى كذلك فى هيئة الأمم المتحدة منذ سنة ١٩٤٨ ، بعد انزال الستار الحديدى الذى استمر منذ ثورة سنة ١٩١٧ الى نهاية الحرب العالمية الثانية والى ما بعدها بقليل .

وأخذت الماركسية يتزايد تسربها للمجتمعات الاسلامية ، ضمن المجتمعات الأفريقية والآسيوية ، كلما اشتد نضال هذه المجتمعات للتخلص من النفوذ الاستعمارى والسياسى والاستغلالى فى اقتصادها القومى .

فالماركسية تحمل دعوى محاربة : « الحرمان » و « الفقر » ، ومساندة الطبقات الكادحة فى المجتمع التى تعيش فيه قلقة من أجل لقمة العيش ، ولحساب الثراء لغيرها !!. وترى أن طبقة البروليتاريا هى الطبقة المختارة ، وهى الأصل التى يرجع اليها ما عداها ، سواء : فى مستوى المعيشة والأجور ، أو فى السلوك الأخلاقى والنظر الى الحياة ... هى الطبقة التى تورد الطاقة البشرية فى الأولاد الى المجتمع. والمجهود البشرى هو صاحب القيمة وحده ، وليس المال ... وليست عروض الحياة .

= سنة ١٩٣٦ ، وسوريافىسنة ١٩٤٥ ،وباكستانفىسنة ١٩٤٧ ،وأندونيسيافى سنة ١٩٤٩ ، وليبيا فى سنة ١٩٥١ ، والمغرب وتونس فى سنة ١٩٥٦ ، والسودان فى سنة ١٩٥٧ ، والملايو فى سنة ١٩٥٧ ، والجزائر فى سنة ١٩٦٢.

ثم تباعا المجتمعات الاسلامية وسط وشرق أفريقيا على النحو التالى : غينيا فى سنة ١٩٥٧ ومالى فى سنة ١٩٦٠ ، وموريتانيا فى سنة ١٩٦٠ ، والسنغال فى سنة ١٩٦٠ ، ونيجيريا فى سنة ١٩٦٠ ، والنيجر وتشاد فى سنة ١٩٦٠ ، وتنجانيقا فى سنة ١٩٦١ ، وزنزبار فى سنة ١٩٦٣ .

وترجع أسباب البؤس والتدهور المادى فى نظرها الى :

١ ــ تجميع رأس المال فى أيدى قليلة فى المجتمع ؛

٢ ــ والى آلية الانتاج فى المصانع ، التى ترتبت عليها شدة المنافسة ، فاغلاق المصانع التى لا تقوى عليها ؛

٣ ــ والى فائض السكان ، ممثلا فى البطالة ، وزيادة النمو بينهم .

وكل هذه الأسباب ــ فى نظرها ــ خصائص الرأسمالية فى الاقتصاد الغربى ، الذى ساد المجتمعات الاسلامية فى ظل الاستعمار الأوروبى .

وقد تسربت الماركسية اللينينية الى المجتمعات الاسلامية فى وقت لم تفق فيه هذه المجتمعات بعد .. من أزمة العلمانية الغربية فى الصراع لابعاد الاسلام عن مجالات الحياة العامة فيها ، وفى وقت أيضا لم يتفوق فيه الاسلام فى هذا الصراع ضدها . ثم كذلك فى وقت لم يدرك المسلمون فيه بعد خطر الاتجاه العلمانى على كيانهم وعلى مستقبل مجتمعاتهم ... لم يدركوا فيه بعد : مغزى نداء جمال الدين الأفغانى وبعض تلاميذه الذى تضمن رفض النفوذ السياسى الغربى ، ومعه أو قبله : النفوذ الثقافى .

وبذلك أضافت الماركسية الى العلمانية قوة فى مطاردة الاسلام من المجتمعات الاسلامية التى تسربت اليها ، بجانب العلمانية .. بينما فى الوقت نفسه ، خلقت صراعا آخر بينها وبين العلمانية نفسها .

وهنا أصبح المجتمع الاسلامى ميدانا لنوعين من الصراع :

... لصراع العلمانية والماركسية اللينينية معا ضد الاسلام ونظامه فى الحياة .

... وصراع العلمانية من جهة كاتجاه مساعد ، ويساعد ، على مساندة نظام الرأسمالية فى الاقتصاد القومى ، مع الماركسية اللينينية من جهة أخرى ، كاتجاه يقوم على الغاء الملكية الخاصة وتحريمها ، وعلى وضع المجتمع وحريته فوق : الفرد ، وحريته الفردية .

وهناك اذن فى المجتمع الاسلامى المعاصر ثلاث أيديولوجيات تختلف فى جوهرها بعضها عن بعض اختلافا بينا :

هناك : الاسلام ونظامه فى صلة الفرد بالمجتمع والدولة ، وهى صلة الحرية الفردية المشروطة بالابقاء على الصالح العام ، والمحافظة على الأقل على عدم اضراره وايذائه بسبب مباشرة هذه الحرية الفردية ، وكذلك فى صلة

الفرد بالله ، وهى صلة الايمان به ، والهداية بكتابه ، والسلوك طبق مبادئه ومعاييره .. وهى صلة تعود فى نهايتها لصالح العلاقة التى بين الفرد والفرد.

((الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون))(١) .

وهناك العلمانية ونظامها الديمقراطى السياسى ، والرأسمالى الاستغلالى فى الاقتصاد القومى ، واللااسلامى فى التوجيه ، والتعليم ، والتشريع ، والقومى فى اقامة الحدود والفواصل العنصرية وتمجيد تراب الأرض ، أكثر من اعتبار القيم الدينية ومعايير السلوك الأخلاقية الفردية والجماعية على السواء ، التى جاءت بها رسالة الدين .

وهناك الماركسية اللينينية فى تغليب قيمة المجتمع على قيمة الفرد فيه ، والغاء حريته الفردية فى مواجهة الحرية الجماعية ، ومن ثم لا يملك الفرد .. وانما تملك الجماعة ، ولا تقوم الأسرة .. الا بمقدار ما يقوم عليها المجتمع ، وكلما كانت القيادة جماعية ، وكان العمل جماعيا ، وكلما كان الفرد جزءا وليس وحدة فى الجماعة .. كلما تجلى وتحقق اتجاهها .

.. وكذلك فى انكار الايمان بالله ، ومكافحة الدين ، لأنه يخلق ازدواجا فى الولاء ، وتتبع رجاله كأصحاب خطر على أفراد المجتمع ، وتجميد أية سلطة أو نفوذ دينى وعزلها عزلا تاما عن التوجيه وعن كل جانب آخر من جوانب حياة الانسان فى المجتمع .

هذا الى ما يترتب على تنفيذ النظام الاشتراكى فى الاقتصاد القائم على الغاء الملكية الفردية من :

- سقوط نفقة الأقارب من الأسرة حسب الشريعة الاسلامية ، ومن بينهم الزوجة والوالدن ، والأولاد .
- وسقوط فريضة الزكاة .
- ووقف نظام الارث المعمول به فى الاسلام(٢) .

---

(١) البقرة : ١ ــ ٤

(٢) وذلك بسبب أن ملكية الأفراد ، وهى ما يحصلون عليه من أجر .. لا تزيد على ما يسد حاجتهم فى اليوم والليلة . ومن هنا أوجب هذا النظام عمل المرأة خارج المنزل لسد حاجتها من الطعام والملبس .. كما أوجب رعاية الدولة للأولاد ، وشرع التأمين ضد الشيخوخة والعجز عن العمل لأى سبب .

بالاضافة الى أنها تجعل المشورة فى الرأى والمباشرة فى الحكم والسيادة لطبقة معينة هى عوام الناس وجماهيرهم .

وبينما الاسلام لا يعرف حدود أمة الا بحدود سيادة مبادئه الانسانية ، والايمان بها منبثقا عن الايمان بالله ..

.. اذا بالماركسية اللينينية لا تعرف حدود أمة الا بالولاء للعمالية العالمية وبانكار كل مقومات القومية ، والكفر بالله ورسالته ..

.. واذا أيضا بالعلمانية أو القومية اللادينية لا تعرف أمة الا بحدود ترابها وبخصائص الشعب من حيث الجنس البشرى أو الطائفية من حيث المذهب التى تعيش على هذه الأرض ، فى بعد عن الصلة بالسماء وما يتصل بها من هداية الله .

ثم كذلك بينما الاسلام لا يعرف الانسان الا وحدة من : بدن وروح ، ولا يعرف توجيها صحيحا له الا بالتوازن بين الروح والبدن .. والا بصفاء الروح وعدم طغيان البدن .

.. اذا بالماركسية اللينينية لا تعرف الانسان الا مادة محسوسة مظلمة فى ظاهره وباطنه ، وفى جسمه وعقله على السواء ، ولا تعرف توجيها سليما له الا ببقائه فى ظلام المادية والا بتنمية ذاته فى تفاعله مع العنصر الاقتصادى وحده .

.... واذا بالعلمانية أو القومية اللادينية أيضا لا تعرف الانسان الا ارادة حرة ، لا تتيدها حدود لصفاء النفس ، ولا قيود للابقاء على المودة الانسانية بين فرد وفرد ولا تعرف توجيها صحيحا له الا بما يحفظ له هذه الارادة الحرة ، ولو دفعت الى طريق شهوة البدن والجسم وحده .. ولو حدت من انسانية الانسان ومن مستواه الذى يتميز به كانسان .. ولو قوضت المجتمع كمجتمع ، وأبقت على الانسان كفرد الى حين .

* * *

= وفى تحديد هذا النظام للأجور جعل الأجر بحيث لا يزيد عن حاجة الفرد حسب مستوى معيشته . والمرأة فيه مساوية للرجل فى كل شىء ، سواء فى الأجر عن العمل الواحد أو فى مباشرة العمل نفسه ، لا يختلف عملها فى طبيعته عن عمل الرجل . وان كان هناك شىء يورث فنصيبها فيما يورث لا يختلف عن نصيبه فى الكم والنوع .

ثلاثة نظم : فى التفكير .. والايمان .

... وثلاثة اتجاهات يدفع الانسان فيها ، دون أن يكون بينها التقاء الا فى أنها يصارع بعضها بعضا ، من أجل السيادة على الانسان .

... ثلاث أيديولوجيات تتصارع على أرض المسلمين لقيادة المسلم فى مجتمعه ، ويختلط بعضها ببعض بحيث يشتبه الأصيل بينها على المسلم ، ان لم يكن ينكره .

ماذا يكون من آثار هذه الأيديولوجيات الثلاث فى حياة المسلم ، وفى حياة مجتمع المسلمين .

ليس هناك الا أن تدفع كل أيديولوجية فى حياة المسلم بما يلتزمه منطقها من معايير للسلوك والتصرفات ، ومن مفاهيم تحدد النظرة الى الوجود وقيمة الانسان .

... ليس هناك الا أن يدفع القوى منها حسب قوته فى الاعلام والمساندة والضعيف منها حسب ضعفه برجاله وعرضه ، ان بقيت فيه حياة تدفع وتحرك .

... ليس هناك الا أن تدفع المادية ، التى تقوم عليها أية أيديولوجية بين هذه الثلاث .. الى ما يشبع الغرائز فى السلوك .. والى ما لا يدع البدن يفيق من متع وملذات حسية ، ومن فواحش ومنكرات .

... وليس هناك ازاء ذلك الا ما تنكره الروحية التى تشارك فى تكوين بعض هذه الأيديولوجيات الثلاث ، مما يثير الغرائز ويجعل حياة الانسان حياة شهوة بطن وفرج ، وحياة انحلال وتحلل من أى التزام خلقى ، يحفظ على المرء قيمته وعلاقته بغيره .

... ليس هناك الا أن تدفع المادية التى تقوم عليها أية أيديولوجية من هذه الأيديولوجيات الثلاث ، فى مجال النظر والتقييم .. ما يحسن : فى « النفعية » و « الانتهازية » ... ويبغض بالتالى فيما « يجب » أداؤه فى غير مقابل لصالح المجتمع ولصالح الآخرين فيه .

... وليس هناك ازاء ذلك الا ما تنادى به الروحية التى تشارك فى تكوين بعض هذه الأيديولوجيات .. من الاعطاء دون أخذ ، وأداء الواجب لذات الواجب .

... ليس هناك الا « فردية » تسير فى طريق الطغيان ، والا أنانية تنكر على الغير قيمته ووجوده ، وهذا ما تدعو اليه الأيديولوجية العلمانية باسم

الحرية الفردية ، وتصير اليه الماركسية اللينينية ، باسم البروليتاريا والطبقة الكادحة .

... وليس هناك فى مقابل ذلك الا « جماعية » يلتزم فيها الفرد أمام نفسه حرا مختارا بنصيبه فى قيامها وبقائها ، ويحتفظ بوجوده الذاتى وبمشيئته الجماعية . وذلك ما يدعو اليه الاسلام وتطلبه رسالته .

ومن أجل ذلك : نجد « الواقع » فى حياة المسلمين .. خليطا من المقاييس الأخلاقية .. وخليطا من سبل السلوك الخلقى .. وخليطا من النظرات الفكرية والفلسفية .. وخليطا من المجموعات البشرية فى الميول والاتجاه .. وخليطا من النقاش والجدل يحكمه التضاد والتناقض .. وخليطا من أنواع الحقد والكراهية .. وخليطا من نظرة التربص والمؤامرات .

... ومن أجل ذلك نجد تضادا وتضاربا فى المجتمع الاسلامى — أى مجتمع — فكريا وعمليا ، قبل أن يكون طبقيا أو اجتماعيا ... نجد صراعا فى التفكير والتوجيه والسلوك ، قبل أن يكون صراعا بين الغنى والفقر .. أو بين الطبقة الأرستقراطية أو البورجوازية من جانب ، والعمالية ، أو الكادحة من جانب آخر .

... ومن أجل ذلك نجد تضادا وتضاربا بين دعوة فى الولاء الى قوم ووطن .. وأخرى الى عالمية عمانية .. وثالثة الى مبادىء وقيم انسانية .

... نجد احدى الأيديولوجيات الثلاث ترتبط بأرض وهى : العلمانية القومية ، وثانيتها : بطبقة عامة فى مجتمع وهى الماركسية اللينينية ، وثالثتها : بمستوى انسانى خاص .. هو مستوى الانسان الرفيع فى أى أرض ، وفى أى قوم ، وفى أية طبقة ، وهى الأيديولوجية الاسلامية .

ويصور المجتمع الأندونيسى المعاصر .. هذا الخلط .. وهذا التناقض :

فالاسلام ، الدين الأصيل بين المسلمين فيه .. يتبنى نظاما أيديولوجيا فى الحياة ، هو نظام انسانية الانسان وانسانية الأسرة ، وانسانية المجتمع .

.. طرأ عليه منذ سنة ١٩٢٧ أيديولوجية القومية الأندونيسية كما قنن حدودها الرئيس سوكارنو « بونج كارنو » ، وتتكون من الماركسية ، والايمان بالله ، وهو تركيب أيديولوجى متنافر .

... ثم طرأت عليهما معا بعد الحرب العالمية الثانية الشيوعية اللينينية فيما تنكره على الاسلام كدين عقيدة وشريعة ، وفيما تنكره على القومية الأندونيسية فى الولاء للوطن الأندونيسى كعائق فى سبيل العالمية العمالية ، التى تربط ولاءها الأخير « لموسكو » ، أو « بكين » .

ويتكون نظام الحكم فى هذا المجتمع الاندونيسى من أحزاب ثلاثة ، يمثل كل حزب منها اتجاها وأيديولوجية خاصة من هذه الأيديولوجيات الثلاث . وفى واقع الأمر : يتكون هذا النظام من تنافريات وتناقضات تثير القلق والاضطراب .. وتدفع الى عدم الاستقرار فى العلاقات ، والى الانقلاب تلو الانقلاب .

وهذا ما كان بالفعل من قيام الحزب الشيوعى بانقلاب من أجل السلطة وتحويل الأمة الأندونيسية المسلمة كلها الى مجتمع شيوعى عمالى عالمى ، مرة فى سنة ١٩٤٩ ومرة ثانية فى ٣١ سبتمبر سنة ١٩٦٥ .

... وليست هذه هى المرة الأخيرة .. طالما لم يصف المجتمع ويخلص الى أيديولوجية واحدة ، هى أيديولوجيته الأصيلة ، وهى نظام الاسلام .

ان استقبال المسلمين فى المجتمعات الاسلامية لمصدر الانحلال الخلقى فى المجتمع الصناعى المعاصر ، الذى وقع تحت تأثير « اللادينية » فى الاتجاه العلمانى ، تحت تأثير « الالحاد » فى الاتجاه الماركسى اللينينى .. هو استقبال يلقى الاستنكار من جانب ، والترحيب من جانب ثان .. يلقى الاستنكار من الكثرة الهزيلة ، بينما يلقى الترحيب من القلة التى تحمل القلم فى التوجيه ، وهى قوية على قلتها بما تملك من زمام التوجيه نفسه .

... حتى علاقات الأسرة المسلمة أصبحت غير مستقرة ، تحت ضغط التباين فى مقاييس السلوك التى تفرضها هذه الأيديولوجيات الثلاث ، فضلا عن نظام الحكم ، والتشريع ، والتوجيه . فبينما يوجب الاسلام تضامنا فى علاقات الأسرة بأداء نفقة الأقارب على الموسع قدره وعلى المقتر قدره .. وتضامنا فى المجتمع بأداء فريضة الزكاة — اذا بنظام الغاء الملكية الفردية فى النظام الاشتراكى الماركسى يسقط الأمرين معا ، عن طريق منع القدرة على الانفاق وأداء الزكاة .

وبينما النظام الاسلامى يكل أمر الطلاق أصلا للزوج ولا يعرف ما يسمى بالانفصال البدنى .. اذا بالنظام العلمانى متأثرا بتقاليد المسيحية ان أباح الطلاق ، فعن طريق القضاء ، وبدلا منه يجيز الانفصال البدنى الى غير أجل . فلا تعرف المرأة وكذلك الرجل : أهى أو هو فى علاقة زوجية أم لا .

ومن يقرأ مثلا ما تكتبه « ليلى البعلبكى » فى لبنان ، وزبيدة بيطارى الجزائرية(١) .. يرى الاتجاه اللااسلامى تحت ما يسمى بتحرير المرأة المسلمة ، فيما يطلبانه من : شرعية زواج المسلمة بغير المسلم(٢) .. واباحة

---

(١) فى كتاب لها بعنوان : « ألا ابكين يا اخواتى المسلمات » أصدره جاليمارد فى باريس باللغة الفرنسية .

(٢) ومن الأخبار الأخيرة التى نشرتها بعض الصحف الأوروبية باللغة=

التجربة الجنسية قبل الزواج .. ومســـاواة الطفل غير الشرعى بالطفـــل الشرعى ، الأمر الذى يدل على تأثير الاتجاه المادى العلمانى ، أو الالحادى فى محاولة التغلب على أبعاد القيم الاسلامية فى العلاقات الأسرية من جانب ، وعلى وجود الضعف الاسلامى فى المجتمع من جانب آخر .

آثار الصراع الأيديولوجى :

ولم تكن آثار هذا الخلط العجيب القائم على التناقض بين الأيديولوجيات الثلاث فى المجتمع الاسلامى ، هى فقط : صعوبة استخلاص الاتجاه الأصيل الأيديولوجى للمجتمع فى خطوطه الواضحة من هذا الخلط .. ولا صعوبة حمل المجتمع الاسلامى على اتباعه .. ولا صـــعوبة توجيه العـــاطفة الدينية بين المسلمين توجيها سليما ايجابيا .

... بل كان من الآثار الواضحة لهذا الخلط مع ذلك : أمران فى غاية الأهمية :

١ — تواجد كتل أيديولوجية داخل المجتمع يتربص بعضها ببعض ،

٢ — وتعرض المجتمع للضغط الأيديولوجى الخـــارجى .. لايثـار أيديولوجية معينة على حساب الأخرى : اما العلمانية اللادينية ، أو الماركسية الالحادية .

وتشكيل هـــذه الكتل الأيديولوجية يتم تحت تأثير الصراع الثـــلاثى ، ولغاية استقلال كل كتلة بالحكم فى المجتمع . وكل كتلة اذا استقلت بالحكم لا تدع مجالا لكتلة أخـــرى فى تداوله معهـــا . لأنها ذاتها ليست حزبا ضمن أحزاب سياسية فى نظام حكم واحد . وانما هى عقائد مختلفة ومتباينة .. تنتهى الى نظم فى الحكم مختلفة ومتبـــاينة كـــذلك .. ومن ثم لا يكون بينهـــا تسامح ، لأن تسع احداها الأخرى فى وجود واحد ، وفى توجيه واحد ، وفى ظل حكم واحد .

وهذه الكتل أو المجموعات التى تنتمى الى الأيديولوجيات الثلاث بتطلعها الى الحكم فى المجتمع الاسلامى وبتناقض بعضها لبعض .. يشتد الصراع

= الانجليزية خبر زواج الأميرة الايرانية المسلمة فريدة باختيارى البالغ عمرها ٢٢ عاما بمنتج الفيلم والمسرح الأمريكى : داود بلهام ، البالغ عمره ٤٠ عاما وقد عقد زواجهما بلندن فى يناير سنة ١٩٦٦ ثلاث مرات فى يوم واحد : مرة فى مكتب تسجيل الزواج المدنى ، ثم بعدها فى المركز الاسلامى بـــ «ريجنت بارك» ثم أخيرا بكنيسة القديسة ماريا فى احتفال مسيحى .. «هيرالد تريبيون فى ٢٢ ، ٢٣ يناير سنة ١٩٦٦ ، الطبعة الأوروبية» .

فيما بينها ويعنف ، بحيث لا تكون هناك فترة للبناء الداخلى بعد الاستقلال السياسى ، فضلا عن تثبيت عوامل القدرة فيه على التماسك فى وجه الأزمات والتحديات الخارجية .

اما تعرض المجتمع الاسلامى للضغط الخارجى من أجل أيديولوجية معينة وهى فى الواقع : اما أيديولوجية العلمانية التى يحتضنها النظام الديمقراطى الرأسمالى فيما يسمى نفسه بالعالم الحر ، أو أيديولوجية الماركسية اللينينية التى تبشر بها الشيوعية ويساندها العالم الشيوعى فى أوروبا وآسيا .. فلأن العالم المعاصر ينقسم الى مجموعتين من الأمم والشعوب ، وتواجه كل منهما الأخرى فى حرب باردة أو ساخنة مواجهة لا تقبل التراخى ، الا تحت عوامل الاكراه .. ولفترة من الزمن قد تطول ، أو قد تقصر .

وكل مجموعة من هاتين المجموعتين تحاول أن تجذب أو تضغط على الشعوب والأمم الأخرى التى لم تدر بعد فى فلك أية واحدة منهما .. الى أن تدور فيه .. أو تحاول أن تحمل الأمة التى بدأت تدور فى فلك أية واحدة منهما .. الى التزام حركة هذا الفلك ، والبقاء فى تبعيته .. لا تخرج منه بحال أبدا .

ان العالم الحر ، وهو : امريكا ودول أوروبا الغربية ،

والعالم الشيوعى ، وهو : روسيا ، والصين ، ودول أوروبا الشرقية .. كلا منهما يدافع عن عقيدة ، ويحمى حضارة معينة .

فبينما يحمى العالم الحر الحضارة المسيحية ، وفى ضمنها الاتجاه العلمانى .. يحمى العالم الشيوعى الحضارة المادية ، وفى ضمنها : الاتجاه الالحادى الماركسى اللينينى .

والعالم الاسلامى تحت تأثير الاستعمار الثقافى الغربى ، وهو اتجاه العلمانية .. يكاد يعيش فى فراغ ايمانى وفى عزلة عن الاسلام . ومن أجل ذلك هو فى مهب الريح ، يتحرك حيث تدفعه الرياح ، وتزداد سرعة حركته فى اتجاهها .. حسبما يكون لهذه الريح أو لتلك من عنف وقوة .

فاذا بقى النظام الديمقراطى فى مجتمع اسلامى ، ومعه الرأسمالية فى الاقتصاد ، والعلمانية فى التوجيه .. فبقاء هذا النظام بنفوذ مجموعة العالم الحر ، وتتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية .

واذا دخلت الشيوعية وأصبح لها حزب فى مجتمع اسلامى فبفعل العالم الشيوعى ومجموعته بزعامة الاتحاد السوفييتى أو الصين .

وكلتا المجموعتين : الغربية والشرقية .. تعملان فى التقاء تام جاهدتين بطريق غير مباشر على أن لا يكون للاسلام شأن فى المجتمعات الاسلامية ... بحيث تتكون بعد : اليقظة والايمان الواعى بالاسلام مجموعة ثالثة عالمية : لا هى الى الشرق الشيوعى الالحادى ، ولا هى الى الغرب الديمقراطى الرأسمالى والعلمانى .

ومن هنا يصعب على الوعى الاسلامى الصحيح ، لو وجد .. أن يكون سبيله ميسرة فى المجتمعات الاسلامية . والأمر الآن لذلك .. يكاد يشبه ما كان عليه أمر الدعوة على عهد مكة :

قوى عالمية خارجية .. لا تريد الاسلام فى عالمه وشعوبه ،

... وقوى داخلية فى المجتمعات الاسلامية .. يدفعها الصراع من أجل الحكم الى اغفال الاسلام وتجاهله ، أو الى العمل على بقائه فى حجب التاريخ لا يصل نوره الى حاضر المسلمين ، وغدهم .

للقوى العالمية الخارجية مصلحة .. وللكتل الأيديولوجية داخل المجتمع بين المواطنين مصلحة كذلك معها ، فى ابعاد الاسلام من مصادر التوجيه للمسلمين .

والذى له مصلحة حقيقية فى الاسلام والايمان به هو : الشعب المسلم وحده فى أى مجتمع اسلامى ... هى الجماهير المسلمة التى أضعفها : الفقر ، والجهل ، والمرض ، على عهد الاستعمار ، وأضعفها الاستذلال ، والاضطهاد والتتبع فى ظل الحكم الوطنى بعد الاستقلال .

ان الشعب المسلم فى أى مكان .. هو صاحب المصلحة الحقيقية فى الايمان بالاسلام . لأنه عاش حتى الآن بالايمان به وحده .. وكافح الظلم بهذا الايمان وليس بغيره .. ووقف فى وجه الاستعمار بتوجيه القرآن ، وليس بتوجيه القومية اللادينية والعلمانية الغربية ، ولا بتوجيه الماركسية اللينينية .. ويقف اليوم فى وجه السياسيين الوطنيين المستغلين بالعاطفة الدينية وحدها ..

ان الشعب المسلم فى أى مكان .. عاش بالاسلام .. ويعيش للاسلام . لا تهزه متع الحياة الدنيا .. بقدر ما تحركه عاطفة الايمان بالله ، وصلته برسول الله صلى الله عليه وسلم .. عندما يصلى ويسلم عليه فى كل صلاة ..

التعايش السلمى :

وان سياسة التعايش بين الماركسية اللينينية من جانب والديمقراطية الغربية الرأسمالية من جانب آخر .. لم توقف الصراع بين الكتلتين ،

ولا كذلك الهجوم والدفاع بين الأيديولوجيتين . وانما حول الصورة العلنية الواضحة للهجوم والهجوم المضاد الى صورة أخرى غير مباشرة .

... تلك الصورة الأخرى هى صورة الضغط الاقتصادى : وصورة القروض للتنمية الاقتصادية فى الدول النامية أو المتطورة فى محاولة لكسبها .

فالاتحاد السوفييتى(١) يقدم قروضا سخية للدول النامية لشراء معدات صناعية وحربية . والولايات المتحدة الأمريكية كذلك تقدم قروضا لهذه الدول لشراء المواد الغذائية من فيض الحاصلات الأمريكية الزراعية ، وهى القروض التى تستخدم فى شراء : الطعام من أجل السلام ، ثم تحصل بالعملة المحلية للدولة النامية على أن يخصص جزء منها للتطوير الزراعى فى تلك الدولة .

وكل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة يقدم سلعا فائضة عنده ... من جيش من « الخبراء » يسعى لتصدير الفكر الى جانب تصدير السلع !! وتأييد فريق من المواطنين وتصفية آخر !!

واجب المسلمين :

واجب المسلمين .. فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة أن ينبهوا أولئكم العلمانيين أو الماركسيين الذين اغتصبوا القيادة والزعامة فيها ، وخانوا العهد والتاريخ ، وانحرفوا عن الجادة التى سار عليها الصراع ضد الاستعمار ، وتنكروا للمبادىء التى حملت على الاستقلال وعلى تخليص الأمة الاسلامية فى اى مكان من اضعاف المستعمر واذلاله ، وهى مبادىء الاسلام والايمان بها والتضحية فى سبيلها بالنفس والمال ، والولد ...

ان الاستعمار فى المجتمعات الاسلامية — عندما جثم — استهدف الاسلام لاضعاف قيمه وابعاد الناشئة من أبناء المسلمين عن قوة الايمان به والتمسك بتعاليمه .. كما استهدف رجاله وعلماءه بابعاد القوى منهم عن مجال الحياة العامة والحيلولة بينه وبين الاستقرار فى حياته الخاصة ، وبتقريب الضعيف منهم عن طريق المال أو الجاه فى الوظيفة والسلطة ، وحمله من أجل استمرار استمتاعه بالمال أو الجاه أو كليهما .. على الاحتراف بالدين وتشويه قيمه ومبادئه . وقد وجد بعض .. الطرفين .. : فى شمال أفريقيا أو فى وسطها أو فى غربها من الاستعمار الفرنسى تشجيعا على تثبيت البدع والانحرافات فى تلك المجتمعات ، حتى لا تعود مبادىء الاسلام الى صفائها وبالتالى الى قوتها . ومن ثم يمكن للمستعمر أن يستقر ، ويستغل ،

---

(١) وكذلك الصين الشيوعية فى نطاق ضيق وفى فاعلية أكثر نحو هدفها المنشود .

ويستذل ويسود ! مع أن لبعضهم الآخر فضل كبير فى نشر الاسلام فى هذه المجتمعات .

والمسلمون فى حركات التحرير من الاستعمار وفى استرداد سيادتهم على بلادهم عمدوا كذلك الى الاسلام ليزيلوا غشاوة البدعة من تعاليمه ، ويكشفوا الانحراف فى تأويله ، وليعملوا على زيادة الايمان به والاستمساك بمبادئه ، حتى يصبحوا جماعة عزيزة الجانب .. قوية الاتجاه : تكافح فى الحياة بعد وعى بها ، وبما يجب أن يسود فيها ، ويستهدف فيها .

والاختلاف فى أسلوب اضعاف الاسلام بين الاستعمار الفرنسى والآخر الانجليزى يرجع الى التعصب الدينى الكاثوليكى فى الشعب الفرنسى من جهة والى ملاءمة البروتستنتية للاتجاه العلمانى فى الشعب الانجليزى من جهة أخرى .

فالكاثوليكية أصلا ترى فى الاسلام خروجا عن جادة الدين ونطاق العقيدة السماوية ، ولذا توجب مقاومته بكل عنف وكذا مقاومة المنتسبين اليه واذلالهم واحراجهم فى الحياة . وقد تجلت مقاومة الكثلكة للاسلام فى أسبانيا ، كما تجلى اضطهادها للعرب والمسلمين هناك ، قبل استعمار الفرنسيين لشمال افريقيا ... ولذا فالاستعمار الفرنسى للمجتمعات الاسلامية فى أى مكان يحمل الحقد على الاسلام وعلى المسلمين . ومن هنا كان أسلوبه فى اضعاف المسلمين واضعاف صلتهم بدينهم هو محاولته تصوير الاسلام كمجموعة من الخرافات والأوهام ، أو على الأقل كمجموعة من القواعد التى لا تتفق مع الحضارة الانسانية ، أو الميل بكل تعاليمه الى صوفية الحلاج وابن عربى ، وهى صوفية : « الحلول » و « الاتحاد » ! . وليس هناك أقوى فى أداء هذه الغاية من بعض المنحرفين من « الطرقيين » الذين انحطوا الى عبادة الانسان وبالسلبية فى الحياة ، وتشبثوا بمظاهر هى تضحك وتبكى ، بينما لا تثمر فى الحياة الانسانية غير التواكل والانحراف فى فهم « القدر » .

وبعض رجال الطرق الذين استخدمهم الاستعمار الفرنسى ليس هم من السائرين على جادة التصوف المستقيم والزهد القائم على القناعة وطرح التشبث بمتع الحياة وانما هم شىء آخر .. هم المتمسكون بانحرافات أقرب الى الشعوذة وانغماس فى باطل ليست له صلة بحق . أما التصوف المستقيم فهو الضمان لسيادة الانسان فى الحياة .. وصمام الأمان ضد خطر الأنانية ، وما أشدها خطرا على الذات وعلى البشرية .

... التصوف المستقيم ، أو الزهد القائم على القناعة هو لب رسالة

الدين وجـــوهر الروحية .. انه ضـــد الشره والطمع .. ضد الطغيـــان والاستعمار .

... والحياة التى تكسر فيها حدة الأنانية هى حياة الانسان الكريمة ، وليست الا حياة الزاهد العابد . والحياة التى تسود فيها المـــادية هى حياة الأنانية اللاانسانية .. وحياة الاستعمار والاذلال .. وحياة الذل والتفرقة العنصرية .

ولمصاحبة التعصب الكاثوليكى للاستعمار الفرنسى كان من أساليبه فى المجتمعات الاسلامية — بجانب اضعاف الاسلام وتشويه قيمه — الحض على نشر الكثلكة من مذاهب الكنائس المسيحية عن طريق التبشير فيها وتحويل المساجد الى كنائس أو الى حانات وبارات يحتسى فيها الخمر ويرتكب المنكر، تماديا فى احتقار الاسلام واذلال المسلمين . وذلك كله بالاضـــافة الى ترك المسلمين فى جهل وفقر ومرض ، ان لم يحملوا أكثر من ذلك على الاغراق فى كل من هذه الجوانب المميتة للانسان .

أما الاستعمار الانجليزى .. فقد أخذ الطريق الآخر لاضعاف الاسلام كطريق لتأمين تبعية المسلمين ورضائهم بالحكم الجديد ، وهو طريق العلمانية وتأكيده فى المجتمعات الاسلامية .. حتى ينعزل الاسلام كلية أو يتخلف عن قيادة هذه المجتمعات بحيث لا يعود له بعد ذلك أثر فى هذه المجتمعات الا اذا قامت دعوة جديدة الى مبادئه لا تقل فى قوتها ودفعها عما كان عليه الوضع على عهد الدعوة الأولى فى مكة والمدينة .

* * *

ولكن ارادة المسلمين ، رغم هذه أو تلك من المحاولات لاضعـــاف الاسلام من جانب الاستعمار .. كانت أقوى بكثير فمنها فنفذت الى جمع الشمل وتكتيل القوى فى مواجهته على أساس من الاسلام وعملا بمبادئه فى الجهاد فى سبيل الله والتضحية بالنفس والمال والولد أملا فى رضائه .

وكانت ارادتهم من ارادة الله فضعفت شوكة الاستعمار وتقلص ظله العسكرى والسياسى ، وبقيت آثاره فى الاقتصاد والثقافة والتوجيه .

والخطـــوة التى كان يجب على المســـلمين فى أى مجتمع حصـــل على استقلاله السياسى من مجتمعاتهم أن يخطوها فى سبيل تدعيم هذا الاستقلال من جانب ، والتخلص نهائيا من الآثار الاقتصادية والثقافية والتوجيهية التى بقيت للاستعمار من جانب آخر ... هى اعادة النظر فى القيم والمبـــادىء الاسلامية وطرح الزائف والطارىء عليها من البـــدع والانحرافات ومظاهر

الضعف كلها ثم التمسك بالأصيل النقى منها . وهذا يستوجب حتما محاربة البدع والأباطيل والسلبيات كلها .. كما يستوجب الدعوة الى قوة الايمان وقوة الترابط فى المجتمع على أساس من مبادىء القرآن والسنة الصحيحة .

وبذلك يصبح المجتمع الاسلامى ذا خلقية اسلامية ، كما يصبح صاحب انسانية بين أفراده وفى علاقته بالمجتمعات الأخرى .

ولكن بدلا من هذه الخطوة تقفز الى قيادة هذه المجتمعات فى الأغلب منها من الوطنيين من هو مولع بتقليد الغرب فى نظام الحكم وفى التوجيه ، تحت التأثر بتلك الدعايات السابقة المغرضة التى كان يروجها المستعمرون وهى تلك الدعاية التى تصور الحضارة الغربية والسلوك الغربى والتوجيه الغربى على أنها نماذج للبشرية .

وسار هؤلاء القادة فى نفس طريق الاستعمار السابق فى حكم المجتمعات الاسلامية وفى توجيهها . ودفعوا بذلك العلمانية أو الاستهتار بالقيم الاسلامية خطوات الى الأمام ، بينما طاردوا الاسلام فى مبادئه الأصيلة مراحل الى الخلف وعلى هامش حياة المسلمين .

وبعض المجتمعات الاسلامية التى تكونت فيها قوة عسكرية وطنية بعد الاستقلال أصبحت هذه القوة فيها تمارس نفس الطريق فى الامتيازات الطبقية التى كانت تمارسها قوات الاحتلال العسكرى ، وتسير فى معاملة المدنيين بنفس الأسلوب الذى كان لتلك القوات فى سلوكها مع المدنيين من المواطنين .

ويكاد الطريق الوطنى فى المجتمعات الاسلامية بعد الاستقلال السياسى لا يرى متميزا من الطريق الاستعمارى على عهد الاحتلال ، الا باللغة الوطنية التى فشا استعمالها فى عهد الحكم الوطنى .

... أما خطوط الحياة العامة .. وأما مسالك التوجيه ... وأما الاعتزاز بالحضارة الغربية فلم يتغير الأمر فيها بعد الا بالزيادة عما كان عليه الوضع من قبل .

فاذا شاء لبعض قيادات المجتمعات الاسلامية بعد الاستقلال السياسى أن تخالف فى نظام الحكم والتوجيه والتشريع التى كانت للمستعمر السابق .. فانها تخالف باتباع النظام الآخر فى الغرب أيضا وهو نظام الماركسية اللينينية . وليس فى التفكير فى اعادة النظر فى تقييم المبادىء الاسلامية تمهيدا لتطبيقها وسعيا وراء الاستقلال الحقيقى للمجتمع الاسلامى .

والماركسية اللينينية بخداعها بالشعارات البراقة والزائفة من : التقدمية .. والحتمية التاريخية .. والجماهيرية .. والنضال الثورى ..

والعدالة الاجتماعية ، وباستخدامها عبارات التنديد بالاقطاع ورأس المال من : استغلال الطبقة العاملة ، وتشويه الملكية الفردية ، ومن طلبها استخدام التخريب ، ورفضها للقيم الأخلاقية كلها فى سبيل الوصول الى حكومة الطبقة العاملة .. وفى الواقع للوصول الى حكومة ديكتاتورية تقوم بها عصابة معينة وتفرض وصايتها على الجماهير والغوغاء .. بصور مختلفة ... أكثر شرية من نظام الحكم الغربى الآخر السابق عليها ، وهو حكم النظام الرأسمالى . اذ هذا النظام الأخير اذ يوصل الى فجوة فى توزيع الثروة القومية ، ويدفع الى ثراء طاغ فى جهة وفقر مدقع فى جهة أخرى بين المواطنين .. لكنه يترك على أية حال فم المواطن مفتوحا للقول وللرأى دون حرج وأذى ، ودون ارهاب وتتبع .. أما ذلك النظام الماركسى اللينينى فهو يحرم الفم فى فتحته من تناول لقمة العيش اذا خرج منها قول أو رأى . وفتحة الفم تفتح مرة واحدة اما لسد رمق المعدة ، واما للقول ، ان بقى له بعد القول نبض يشير الى حياته .

* * *

ان اتباع أى من النظامين فى أى مجتمع اسلامى استقل سياسيا فى الوقت المعاصر هو انتكاس فى واقع الأمر لحركة المواجهة التى أضعفت الاستعمار ثم أرغمته على الموافقة على الاستقلال السياسى .. بل هو أبعد من ذلك .. هو خيانة للحركة الوطنية والقوة الوطنية التى تكتلت على أساس من الايمان بالاسلام ، وكان يجب أن تبقى متكتلة على الأساس نفسه لتدفع بحركة الاستقلال الجديدة الى ابراز شخصية المجتمع واحياء الروابط التى ترتبط بين أفراده ، كالجسد الذى اذا اشتكى عضو منه بالحمى تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

ان العناصر السطحية الهزيلة التى دفعتها الانتهازية والنفعية الى تقدم الصفوف لقيادة المجتمعات الاسلامية التى استقلت والتى يعاونها الغرب أو الشرق فى البقاء فى القيادة .. تشكل الخطر الجسيم على هذه المجتمعات ذلك الخطر الذى فتت قوتها الوطنية الداخلية الى قوى متصارعة متباغضة ، محتمية هذه العناصر بحماة النظام الرأسمالى أو ذاك النظام الماركسى ، وملتجئة اليه فى تسليح بعض التشكيلات الوطنية التى تؤلفها لمساندة الحكم الداخلى : سواء بعتاده الحربى أو بخبرته الفنية العسكرية .

... ان خطر هذه العناصر القيادية ينفذ الى صميم المجتمع ويحول قوته الوطنية الصاعدة نحو التمكن من الاستقلال الحقيقى الى قوة تدفع الى تبعية جامحة الى هذا المعسكر الرأسمالى أو الى ذاك الماركسى اللينينى فى أيديولوجيته وتفكيره .. وقد كانت هذه القوة على عهد الاستعمار متحفزة الى

الانطلاق نحو بناء شخصية المجتمع ثم انطلقت فعلا فزحزحته عن مركز السلطة .. ثم ارتدت على عهد الاستقلال الوطنى الى هدم الشخصية الأصيلة للمجتمع كى تلحقه بركب الآخرين . وكل ذلك من أجل الحكم وجاهه .

ان هذه العناصر الهزيلة فى تفكيرها والمتسلطة بعضلاتها التى استولت على قيادة المجتمعات الاسلامية .. عاجزة عن أن تخرج من تبعية التقليد لأحد النظامين الغربيين عجزا ذاتيا .... وعاجزة عن وعى تاريخ هذين النظامين ، وعن تقييمهما وعن المصير الحتمى المؤدى كل واحد منهما اليه . وهو طغيان عصابة : مرة عن طريق المال .. وأخرى عن طريق الغاء الفقر ! .

ان عصابة الرأسمالية فى المجتمع العلمانى هى عصابة أفراد نشطوا فى جمع المال وتكديسه ، بينما عصابة رأسمالية الدولة فى المجتمع الماركسى اللينينى هى عصابة أفراد وقع فى أيديهم المال بسيطرة القوة وبخداع الشعارات .

ولم يستطع المسلمون فى المجتمعات الاسلامية بعد استقلالها أن يقوموا فى وجه هذه العناصر السطحية الهزيلة كما قاموا من قبل فى وجه قوة المستعمر ونفوذه واستخلصوا منه استقلال شعوبهم ، لأنهم وثقوا فى هذه العناصر كمواطنين .. بالاضافة الى أن هذه العناصر أغرتهم ، وتغريهم باسم الوطنية أو باسم العدل الاجتماعى : من الشعارات التى تعبر عن آمالهم دون أن يكون لها واقع فى يوم من الأيام ، طالما كان أسلوب الحكم هو النظام الرأسمالى أو النظام الماركسى اللينينى .

فعامل الاغراء بالشعارات مرة .. وعامل القوة المسلحة مرة أخرى التى تمت بعد الاستقلال وأقبل على استغلالها الاستعمار الجديد والشيوعية العالمية على حد سواء .. حالا فى بعض المجتمعات دون النمو السوى الرشيد .

ولم تكسب بعض المجتمعات الاسلامية المستقلة من استقلالها سوى الصراع الداخلى من أجل الحكم ، وسوى كبت الحريات الفردية وتحطيم قوى المعارضة سواء بين المثقفين أو أصحاب الثراء والنعمة .. وبذلك عادت هذه المجتمعات الى الاحساس بالمذلة مرة أخرى .. وربما كان احساسها بالمذلة هذه المرة على عهد الحكم الوطنى أشد منه على عهد حكم الاحتلال السابق .

وربما يعتبر استقلالها بسبب هذه الآثار السلبية عاملا لتخلفها : سواء فى البناء والتعمير ، أو فى تأكيد القيم الاجتماعية ، وتكوين الشخصية المميزة للمجتمع .

وعلى أية حال فالاستقلال السياسى وما أتى بعده من حكم وطنى فى بعض المجتمعات الاسلامية يعتبر على الأقل فترة تجميد للقوى الذاتية فى المجتمع ، تلك القوى التى أطاحت بنفوذ المستعمر وقوته ، ان لم يعتبر هذا الاستقلال عامل اضعاف وافناء لها .

ولهذا يجب أن يستأنف المسلمون ما بدأوه فى مواجهة الاستعمار وهو السعى الى استقلال حقيقى يمكن للقوى الذاتية فى المجتمع من الانطلاق كى تكسح رواسب العلمانية الغربية فى عنف تلك الأيديولوجية الأخرى المستوردة ، وهى أيديولوجية الماركسية اللينينية . وبذلك يخلو الطريق لاستمرار تاريخ الأمة الاسلامية كأمة تميزت برسالتها ومنهجها فى الحياة ، وبدورها فيها ، وهو : دور السلام والاسلام .

واذا كانت تجربة ما بعد الاستقلال السياسى فى بعض المجتمعات الاسلامية صاحبتها هذه النتائج المعوقة عن التقدم الحقيقى فى مجال الانسانية أو فى مجالات الحياة الأخرى المادية والاقتصادية ، والمريرة فى الوقت نفسه بالنسبة لتفتيت قوى الأمة فى الصراع والتنافس الداخلى من أجل الحكم .. فأولى بالمجتمعات الاسلامية الأخرى التى هى أحدث عهدا بالاستقلال السياسى كالجزائر .. أن تكون خطوتها بعد الاستقلال امتدادا لنهضتها السابقة التى دفعت بالاستعمار الى حدوده الأصيلة من جديد ، سواء فى مقومات بنائها ، أو فى أهدافها . وهذه المقومات والأهداف لا تخرج عن اعادة تكوين شخصية الأمة الجزائرية عربية واسلامية ، محافظة على ما ورثته من قيم وتأخذ من العلم والتكنيكية ما وسعها الأخذ منها ، لاقامة حضارة معاصرة ترتكز على المبادىء الاسلامية وحدها فى التوجيه والايمان ، قبل أن تجرها تبعية أخرى أيديولوجية أجنبية لها ظروفها الخاصة فى نشأتها وقيامها ، ولها نتائجها فى التجربة تنزل بالانسان الى مستوى الحيوان أو أدنى ، أو تجعل من الحاكم طاغية لا يعرف الرحمة وان أتقن صنوف الفساد والانحراف .

ان ثورة المليون شهيد بالجزائر لم تكن لحساب الشيوعية والماركسية اللينينية بأى اسم .. ولا لحساب العلمانية الغربية .. وانما كانت لحساب الجزائر العربية الاسلامية التى أريد لها أن تبعث من جديد عربية اسلامية والا : كان الأولى لها أن تبقى فرنسية كما أراد لها الاستعمار الفرنسى من أن تصير الى تبعية ماركسية لينينية كما يريد لها عملاء الشيوعية فى البلاد العربية .

ان خروج هذه الثورة عن الخط العربى الاسلامى هو اهدار أدبى لدماء الشهداء ، واستخفاف بالأمة الجزائرية التى عانت التنكيل والظلم والسجون طيلة عهد الاستعمار . ولو أن هذه الأمة الأبية قبلت العلمانية الغربية .. أو

لو أنها حتى قبلت يومذاك الماركسية اللينينية . لما نكل بها ، ولما وقع عليها ظلم آثم ، ولما دفع بأبنائها الى السجون والمعتقلات ، وصبت عليهم فيهـا ألوان العسف والتعذيب .

.... لا ينبغى أن تهدر بواعث ثورتها وغاياتها . ويجب على الشعب الجزائرى الباسل أن يقف بالمرصاد للانحراف فى التوجيه وللعمالة الأجنبية . فالصراع الداخلى لم ينل منه بعد ولم يضعف من قوته التى حصل عن طريقها على الاستقلال .. فالوقت باق لم يفت ولم يمض ، للقبض على زمام التوجيه نحو نهضة وطنية وضع أسسها المعلم الأول عبد الحميد بن باديس .

أيه خيانة ترتكب اذ ما وطئت اقدام الغوغاء باسم التقدمية والعمالية العالمية مقدسات الأمة الجزائرية فى عقيدتها ومبادىء الايمان ، وهى المستوى الانسانى الرفيع ؟

أية خيانة ترتكب اذ ما سرق الثورة عملاء فى الداخل لأيديولوجيات أجنبية ودفعوا بالأمة الجزائرية ليحكم عليها من جديد بالاذلال وكبت الحريات وتحويل مساجدها الى نواد للعبث والمجون ، ومصادمة معتقداتها فى ربهـا والهائها بمعتقدات بشرية تدعو الى خلق الحيوان وتعمل على تحويل جميع الناس الى حفاة متسولين ؟

* * *

الفصـــل الثالث

صراع الأيديولوجيّات ومستقبل الإسلام

والأمل فى عودة الاسلام كقوة عالمية ثالثة ، وكعقيدة يضحى المؤمنون فى سبيلها بأرواحهم وبأموالهم وأهليهم .. هو فى الشعب المسلم اذن ، وليس فى المحترفين السياسيين بمصيره من أجل المصلحة الذاتية .

... وليس بماركس وتعاليمه ،

... وليس بالقومية اللادينية أو العلمانية ،

... وليس بضعف حملة الفكر الاسلامى المريض ،

ان أرض المسلمين لم تكن فى وقت ما الأرض الأصيلة للتجربة العلمانية ولا للتجربة الماركسية ، ولم تكن يوما ما أرض الصراع من أجل نظام الحكم القائم على أيهما .

انها تعرضت فقط للغزو الذى فرض عليها ، وتفرضه عليها أية واحدة من الأيديولوجيتين .

ان روحية الشرق التى نفذت الى الغرب فى صورة المسيحية .. حولها الغرب الى فلسفة مادية .. يصدرها من جديد الى الشرق .

وان سمو القيم الانسانية التى حملتها الرسالة السماوية الى مجتمعات الشرق .. أحالها الغرب بعقله المادى الى تراب تحجب ذراته مطلع الشمس فيـــه ..

ان المسيحية الالهية حولها « هيجل » .. الى فلسفة طبيعية ،

وحول « فيرباخ » بعده الاله فيها .. الى انسان يعبد نفسه ،
ثم جاء « كارل ماركس » فحول الانسانية المؤلهة عند « فيرباخ » .. إلى « الجماهيرية » .. ونقل القداسة الى « البروليتاريا » وحدها ، دون بقية الناس الآخرين فى المجتمع .

ان خط التفكير الأوروبى منذ النهضة .. استهدف الاعتداء على الله ، ورفع صفاء النفس من جسد الانسان ، ليبقيه ظلاما فى غير هداية ، يعيش بحاسته وبغريزته ، ويبعد عقله وروحيته فى سلوكه وفى علاقته بالآخرين ممن فى مجتمعه ... انه استهدف فصل التفكير عن السلوك ، واستخدم الفكر كوسيلة للحس وليس ضابطا له .. انه آمن بالانسان كحيوان له عضلات قوية فى الدرجة الأولى ، ولم يؤمن به كانسان له خصائصه .. حتى فى الدرجة الثانية .

وعن هذا .. وذاك : اختلفت فلسفة الحكم ، وغلبت عليها نزعة الغلبة والسيطرة ، وهى ما تنتمى الى عضلات القوة المادية ، واختفت نزعة الانسانية وهى ما تنتمى الى القيم والمثل العليا .

وعملية التحويل الفلسفى كلها للروحية ، ولانسانية الانسان .. أجنبية تماما عن الشرق : مهبط الرسالات السماوية .. أجنبية تماما عن تفكيره ، وظروفه ، وحياته .

فاذا استقدمها الأجانب كمستعمرين فى القديم ، والحديث ، للمجتمعات الاسلامية أو احتضنها المواطنون من أجل الحكم والاحتفاظ به ، أو بسبب الضعف الذاتى للمتطلعين له ولجاهه .. فانما يحاولون بها نزع أصيل أو اخفاءه الى حين .. فانما ينقلون صراعا ليس فى موقعه ، ولذا لا يطول أمدهم معه وسينتهى بصرعهم قبل أن يصرع الاسلام ومبادئه ، وقبل أن ينهى حياة المسلمين فى ايمانهم بالله .. الى بعد عنه والحاد به .

تصفية آثار العلمانية أولا :

ولكن لابد أن تصفى العلمانية الغربية والقومية اللادينية فى المجتمعات الاسلامية فى طريق عودة الاسلام الى قوته ، وعودة المسلمين الى كتلة مستقلة مترابطة فى وجه أى اقتحام أيديولوجى خارجى .

ولكى تصفى العلمانية ، ومعها القومية اللادينية ، من المجتمع الاسلامى .. يجب انهاء الاستغلال الاقتصادى للثروة القومية ، وهو الذى ترتب على

الحرية الفردية المطلقة من قيود رعاية المصلحة فى استثمار المال واسترباحه ، فيما يسمى بالرأسمالية . لانه وان كانت العلمانية قد استتبعت استغلال الاقتصاد القومى فى أى مجتمع اسلامى ، فان نفس الاستغلال الاقتصادى الرأسمالى استتبع بدوره بعد ذلك استمرار اتجاه العلمانية فى هذا المجتمع . وهنا اذن ترابط متبادل بين الأمرين .

ويبدو هذا الترابط المتبادل بين العلمانية والاستغلال الاقتصادى الرأسمالى فى المجتمع الاسلامى : فى أن وجود العلمانية يحجب نداء الاسلام — اذ وجود الاسلام عندئذ ضعيف — عن أن يكون له أثره فى توجيه المجتمع الاسلامى . وبسبب حجب هذا النداء تفرض الطاعة على المجتمع الاسلامى للاستعمار والولاء له فى توجيهه ، وبذلك يفقد المجتمع الذاتية المستقلة التى تتحدى ، أو التى تقوم فى وجه أى خطر عليه يأتى من قبل المستعمر ، وضد استغلال رأس المال الأجنبى ، وبالتالى يصبح هذا المجتمع نفسه نهبا لهذا الاستغلال المادى والبشرى .

... كما أن استغلال الامكانيات الاقتصادية والطاقات البشرية فى المجتمع الاسلامى لصالح رأس المال الأجنبى .. يرى فى ابعاد الوعى الذاتى للمجتمع الذى يحركه النداء الاسلامى فى قول القرآن الكريم : «**ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم ، قل ان الهدى هدى الله**»(١) ... حماية له وافساحا لمزيد من تمكينه وسيطرته .

ومن ثم يحافظ على نظام العلمانية الذى يتيح له ابعاد هذا الوعى الذاتى للمجتمع ، أو اضعافه على الأقل ، اما الى وقت أو الى الأبد ، ان قيض له البقاء وضمن لنفسه قوة الفاعلية على الأجيال الاسلامية المتتابعة .

فاذا سقط استقلال رأس المال الأجنبى ، وهو لا يسقط الا اذا اشتد الوعى الذاتى فى المجتمع .. انتهت فاعلية الاتجاه العلمانى .

وبنمو هذا الوعى الذاتى تحل المقومات الأساسية والأصيلة فى بناء المجتمع الاسلامى محل العلمانية ، ويشتد ساعد الاستقلال الذاتى فى مواجهة التبعية الفكرية ، والاقتصادية ، والتوجيهية .. للغرب المستعمر .

والوعى الذاتى للمجتمع الاسلامى ليس عاطفة ولا حماسا يعبر عنه المجتمع من وقت لآخر . وانما هو ادراك عميق لجوانب الانسانية ، وللقيم التى طلب الاسلام من المؤمنين به السعى فى تحقيقها فى علاقة بعضهم ببعض .. ومن أجل بقاء مجتمعهم كذلك ، وهى قيم ترجع فى جملتها الى :

---

(١) آل عمران : ٧٣ .

- العدل والتوازن فى المجتمع ،
- والى الاحسان فى المعاملة والسلوك ،
- والى الابتعاد عن الانحراف ، والمساوىء ، والظلم :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وايتـــاء ذى القـــربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون »(١)

- ثم الى الحيطة ضد مباغتة الغدر والتربص من الأجنبى المعتدى :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ... »(٢)

... والعدل والتوازن فى المجتمع هو فى الدرجة الأولى :

عدل وتوازن فى عائد الثروة القومية ،

وعدل وتوازن فى المشاعر والأحاسيس الانســـانية : **« يا أيها الـــذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ... »(٣)**

... والاحساس هو فيض فى الانسانية فى المعاملة ، وزيادة معنوية أو مادية فى العطاء عن الأخذ ، وفى المبادلة على العموم . وايتـــاء ذى القربى ضرب من ضروب الاحسان ليست فيه مبادلة ، وانما هو دفع فى غير متابل ، وعطاء فى غير آخذ ، سوى راحة الضمير من جانب ، ودفع شر الحقد من جانب آخر بين أعضاء الأسرة الواحدة ، حتى تكون الأسرة وحدة قوية فى بناء المجتمع نفسه .

والانحراف فى السلوك ، واقتراف المساوىء فى المعاملات مبـــاشرة ، والظلم والبغى فيما هو احق أو واجب .. كفيل برفع الاحسان فى المعـــاملة من باب أولى .. وأخيرا هو كفيل بتعريض المجتمع للفناء والضياع كلية :

فالفحشاء ، والمنكر ، والبغى كلها عوامل مقوضة للمجتمع ، وأمراض اجتماعية فى علاقة الأفراد بعضهم ببعض ، ودلائل ضعف فى مواجهة المجتمعات الأخرى . وبالأخص فى مواجهة تلك المجتمعات المعادية أو التى تضمر العداء . وما أكثر هذه المجتمعات فى عالم اليوم المادى .

---

(١) النحل : ٩٠ .
(٢) الانفال : ٦٠ .
(٣) الحجرات : ١١ .

الوعى الذاتى للمجتمع هو الايمـــان بالأخلاق الاجتمـــاعية ، والتصرف طبقا لمؤداها .... هو قوة الضمير الذى يحافظ على الحرمات ، ويدفع نحو التعاون والتضامن ، ويحمل على بذل النفس والمال فى سبيل المصلحة العامة ، ويؤثر الاعطاء .. قبل الأخذ ، وأداء الواجب .. قبل المطالبة بالحق ...

.... هو الضمير الذى يحافظ على الحرمات ، على ما تدعو هذه الآية الكريمة ..

((قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احســـانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منهـــا ومـــا بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حـــرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن ، حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفســـا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون))(١)

.... وهو الضمير الذى يدفع المحرمات .. على ما جاء فى قوله تعالى :

((يا أيها الذين آمنوا انما الخمر ، والميسر ، والأنصاب ، والأزلام .. رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة ، والبغضاء ، فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون))(٢)

... هو الضمير الذى يرعى حق المال لدى مالكه لمن عداه ، كما يرعى حق نفسه فيه ، كما تذكر الآيات :

((يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكـــم من الأرض ، ولا تيممـــوا الخبيث منـــه تنفقون ولســـتم بآخـــذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد . الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضـــلا ، والله واســـع عليم . يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر الا أولوا الألباب . وما أنفقتم من نفقة ، أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه ، وما للظالمين من أنصار))(٣) .

---

(١) الانعام : ١٥١ — ١٥٣ .
(٢) المـــائدة : ٩٠ ، ٩١ .
(٣) البقرة : ٢٦٧ — ٢٧٠ .

وكما تذكر الآيات الأخرى :

« يا بنى آدم ، خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده، والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا ، فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل انما حرم ربى الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون »(١)

... وهو الضمير الذى يرعى حق المجتمع فى الأولوية على الفرد نفسه .. فى تماسكه ، وفى بقائه ، وفى صفاء علاقاته ، كما تطلب هذه الآيات:

« ان الذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ، ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ، الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد ، وهاجروا ، وجاهدوا معكم فأولئك منكم ... »(٢)

واذن كعامل أساس فى اسقاط استغلال المال الأجنبى .. وجود قوة الضمير الاجتماعى ، حسب الايمان بالله فيما يدعو اليه من عوامل القوة فى الترابط بين الأفراد .

وهذا الضمير الاجتماعى نفسه اذا كان قوة تساند على دفع استغلال رأس المال الأجنبى .. فانه قوة كذلك فى دفع استغلال رأس المال الوطنى اذا كان ملكية خاصة او عامة على السواء ... ان هذا الضمير هو الحارس على العموم دون النزول بالمال فى مجال امتهان الانسان ، أو ضياع المجتمع أو اضعاف قيمه ، بما يوحى به من وضع المال على أنه : « أمانة مستخلف عليها » .

وباسقاط الاتجاه العلمانى ، والقومية اللادينية من جانب ، وبسيادة الأخلاق الاجتماعية فى المجتمع من جانب آخر .. يعبد الطريق فيه لسيادة القيم الاسلامية ، وتأكيد وجودها :

ان فى التربية والتعليم ،

---

(١) الأعراف : ٣١ — ٣٣ . (٢) الانفال : ٧٢ — ٧٥ .

أو فى التشريع ، والتنظيم ،

أو فى التوجيه العام ،

الوقاية من الماركسية اللينينية :

فاذا تأكد وجود القيم الاسلامية فى المجتمع ، وسادت أخلاق الاسلام الاجتماعية ، حسبما تطلب الآيات القرآنية .. لم تكن للمال سلطة ، ولم يكن له اغراء يدفع على الفتنة والطغيان ، ومن ثم : يأخذ العدل الاجتماعى فى توزيع عائد الثروة القومية .. المجرى الطبيعى فى المجتمع ، وتأخذ الرعاية الاجتماعية مكانها فى حياة كل فرد فيه .

وبذلك يضيق مجال النداء الماركسى فى علاقات الأفراد ، أو ينعدم وتغلق النوافذ دون أساليب الماركسية اللينينية فى الهدم والمؤامرات .. للوصول الى ديكتاتورية عمالية ، تتولى الوصاية على سلطتها فى مرحلة انتقالية : عصابة تبيح لنفسها سلوك طريق البراجماتية فى الاحتفاظ بوضعها والاستمرار فى ممارستها السلطة ، كما صنع لينين .. ومن جاء بعده من زعماء البلشفية .

انه ليس أخطر على المجتمع الاسلامى المعاصر ، بعد العلمانية والقومية اللادينية :

... من بقاء نظام الرأسمالية فى مجال الاقتصاد القومى ،

ومن ترك الباب مفتوحا لطغيان استغلال المال ، وترف أصحابه ، ومهما نشطت الدعوة الى الاسلام ووضحت مبادئه .

لأن الدعوة الى الاسلام عندئذ دعوة فى مسالك وعرة ، أو فى دروب مسدودة . وهى لا تتعدى النظر ومستوى الأسماع ، دون أن تجد لها مكانا فى واقع الحياة .

والخطر عندئذ ليس خطر ارتفاع الدعوة الى الاسلام فوق واقع الحياة ومجرى التطبيق فى سلوك الانسان .. ولكنه خطر « المضاعفات » التى تزيد فى الحيلولة دون عودة الاسلام نفسه الى المجتمع الاسلامى . وهى مضاعفات تمكن الماركسية اللينينية من الواقع الذى أوجدته العلمانية الغربية والقومية اللادينية من قبل فى توجيه المسلمين فى مجتمعاتهم ، وفى ايجاد أجيال منهم يستمرئون طريقها ، ويستهدفون غاياتها طيلة الاستعمار الغربى لها ، ثم كذلك على عهود الحكم الوطنى بعد الاستقلال السياسى .

ان الأمر حينئذ سيكون مع تمكن الماركسية اللينينية .. أمر تصفية للاسلام بحيث لا تكون له عودة ، كما تصنع الآن ومن قبل الآن .. بالبلاد الاسلامية فى شمال آسيا .

... فمنذ اعلان ثورة ١٩١٧ ، وادخال بلاد القوقاز فى دائرة الاتحاد السوفييتى ، ومهمة دعوة الالحاد العلمى للماركسية اللينينية .. هى تصفية الاسلام تصفية نهائية من المجتمعات الاسلامية القوقازية .

وفى تقرير(١) للمؤتمر الروسى للعلوم والأبحاث النظرية الذى عقد فى نهاية سنة ١٩٦٠ فى «ماجاشكالا» .. يتضح تكريس الجهود لبحث موضوع : « مخلفات الدين الاسلامى ووسائل التغلب عليها » .. عن طريق :

الدعوة الالحادية العلمية بين الكبار ،

وطريق : التربية الالحادية العلمية للأطفال فى المدرسة وفى محيط الأسرة .

وتولى الدعوة الى عقد هذا المؤتمر .. كل من جامعة حكومة « داغستان » التى تحمل اسم : ف .ا. لينين ، بالاشتراك مع جمعية نشر المعارف السياسية والعلمية فى داغستان .. واشترك فيه اربعماية وخمسون من مدرسى معاهد التعليم العالى ، وممثلى جمعية نشر المعارف السياسية والعلمية ، والعاملين فى الحزب والهيئات السوفييتية ، وكبار المشتغلين فى ميدان الانتاج ، والمدرسين والكتاب ، والعاملين فى المؤسسات العلمية من : موسكو ، وكييف ، وجمهوريتى أذربيجان وتركمان ، وجمهوريات : داغستان ، وكاباردينوبالكار ، وشمال أوستين ، والتتار ...

● وقد قدم س. م. جاد زهيف ، كبير أساتذة الفلسفة فى جامعة حكومة داغستان التى تحمل اسم : ف. ا. لينين . والخبير فى العلوم التاريخية .. تقريرا الى هذا المؤتمر .. تناول فيه :

« اتجاه رجال الدين نحو صبغ الدين الاسلامى بالصبغة العصرية فى الظروف الراهنة ، وجعله متمشيا مع مبادىء الشيوعية ، وأصبحوا يروجون شعارات مختلفة مثل : «الشيوعية هى عقيدة الوقت الحاضر» . وفلسفتنا : «هى الايمان بالشيوعية ومحبة الله» ، و «الشيوعية هى الجوهر المفهوم لله»

---

(١) التقرير بقلم س.م. جاداهيف ، ن.م. كولييف .. نشر تحت مواضيع فلسفية رقم ٥ فى شهر مايو سنة ١٩٦١ ، وكان التصريح بالنشر فى ١٩٦١/٥/١٠ .

و « مبادىء محمد وأمانيه تتمثل فى الشيوعية العلمية الناشـــطة » و « الله يقودنا نحو : طريق السلام ، ونحو الديمقراطية والاشتراكية » .

« كما علل هذا الاتجاه :

بأنه محاولة لانقاذ الاسلام من تقدم الالحاد العلمى ، والأعمال الباهرة التى حققها العلم فى الوقت الحاضر ، وتكييفه .. بحيث يتمشى مع حاجات التطور الاجتماعى الجديدة » .

● كما قدم م. ا. عبد اللاييف ، الأستاذ بجامعة حكومة داغستان ، والخبير فى العلوم الفلسفية تقريرا بعنوان : « بحث تحليلى للمذاهب الاجتماعية فى القرآن » قال فيه :

● ان جميع مذاهب التعـــاليم الاســـلامية متشـــبعة **بروح الاذعـــان والاستسلام** بل ان كلمة « اسلام » نفسها .. تشير الى الخضـــوع . ثم استطرد يقول : ان القرآن قد فسر تقسيم المجتمعات الى طبقات متنافرة ، وسيطرة طبقة على طبقة أخرى ، والاســـتغلال الوحشى ، والرق .. على **أنها ظواهر طبيعية مستمدة من الله !!.** كما أن القرآن اذ يؤكد : أن كل قوة من الله ، ويطالب الناس بطاعة ولاتهم .. **انما يفرض على الطبقة المستغلة ايمانا بألوهية ظالميهم !!**

... وقال صاحب التقرير بعد ذلك :

« ان القرآن يقول فى تعاليمه : بأن الأمور كلها بيد الله » ، « وأن كل كائن حى بما فى ذلك الانسان : انما يعمل ويحيـــا ويموت وفقا لارادة الله ، ووفقا لكتاب دون فيه مصيره » . ومن ثم : فان القرآن ينكر ارادة الانسان ، **ويجعل منه العوبة فى يد الله !!..** وفى الوقت نفسه فان القرآن يناقض هذا الوضع الذى شرعه فينيب كل الأعمال السلبية (من وجهة النظر الدينية) الى ارادة الانسان بصورة مقدورة !!

... ثم يشير فى نهاية التقرير :

الى أن التعاليم الاجتماعية فى القرآن .. **ذات طبيعة رجعية !!.** ولهذا فان المعرفة والعمل على الكشف عن وجهة هذه التعاليم **ذو أهمية بالغة من الناحيتين النظرية والعملية** » .

● وخصص ف. ك. كولييف ، رئيس قســـم الفلسفة والقـــانون فى أكاديمية جمهورية تركمان السوفييتية الاشتراكية ومن رجال العلوم الفلسفية،

تقريره لموضوع : « التمسك بالشعائر والاحتفالات الاسلامية وما تلحقه من أضرار بالأوضاع التى تسود المجتمع الشيوعى !! .. » فقال :

« ان المؤمنين ملزمون الزاما قاطعا وفقا للشريعة الاسلامية بمراعاة عدة شعائر واحتفالات دينية ، مهما كانت ثقيلة الاحتمال . وأهم هذه الشعائر هى :

« الايمان : بأن لا اله الا الله !!

« وأن محمدا رسول الله !!

« وصيام شهر فى السنة !!

« واقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم !!

« وايتاء الزكاة الى الفقير !!

« والحج الاجبارى الى مكة مرة واحدة فى الحياة على الأقل ، بتقديم الأضحية !!

... وأوضح صاحب التقرير ذلك ، عن طريق أمثلة تستهدف الاقناع من الأضرار التى تلحق هذه الشعائر بصحة الكادحين ! وبحياتهم اليومية ! وكيف أنها تسدل ستارا قاتما على اتجاهات المؤمنين بالاسلام !! وتقف فى سبيل تطور ثقافتهم !! ومن ثم : **تقف حجر عثرة فى طريق قضية النظام الشيوعى !!**

...ونوه صاحب هذا التقرير بأن من بين التعاليم الهمجية !! التى أوصى بها الاسلام : عملية الختان !!. وقال : ان ثمة وجهات نظر متعددة فيما يتصل بشأن هذا التقليد . ولكن هناك أسبابا تؤيد الافتراض بأن عملية الختان كانت من أحط مراحل تطور الانسان ، بمثابة علامة تدل على انتساب الشخص الى احدى الأسر المختلفة فى القبيلة . ولم يحظ هذا التقليد بأهميته الدينية الا بعد ذلك بزمن . ولا يزال اليوم بعض السكان المتأخرين فى جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز يتبعون هذه العادة الوحشية المخجلة !!

... وبعد ذلك أسهب صاحب التقرير فى الحديث عن مادة الكفاح ، وأشكاله وأساليبه ... ضد الشعائر والتقاليد الدينية الضارة !! ...

● بينما قدم د. ايل كارلى ، كبير مدرسى الجامعة التركمانية الحكومية التى تحمل اسم : مكسيم جوركى ، تقريرا عن موضوع : « الاسلام كأداة لاستعباد المرأة !! » أكد فيه :

« النجاح الرائع الذى تحقق فى ميادين الحياة الاقتصادية ، والثقافية فى الجمهوريات القومية السوفييتية . ولكنه قال فى الوقت نفسه :

« ان مخلفات الدين التى تنطوى على السلوك الاقطاعى !! تجاه المرأة لا يزال باقيا فى بعض الجهات . وقال : ان هذه المخلفات تتمثل بصورة رئيسية .. فى تقييد اشتراك النساء فى الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، وتقييد فرصهن فى تلقى التعليم ، والمسلك الذى ينطوى على احتقار المرأة فى سير الحياة اليومية . وقال :

« ان ثمة حالات فى جمهوريات آسيا الوسطى حيث لا تزال مخلفات الاسلام ملتصقة بالحياة !! ، قام فيها الوالدان بانتزاع بناتهم المراهقات من دراستهن ، وبعثوا بهن الى بيت الزوجية !!

... « والواقع : أن الشباب من النساء والفتيات اللاتى يظهرن عدم الخضوع للعادات والتقاليد الدينية المهينة !! يتعرض للاضطهاد من جانب بعض الوالدين . كما أن من بين مخلفات الدين التى تتسم بالسلوك الاقطاعى !! تجاه المرأة : تعدد الزوجات ، ومهر العروس . وهى تقاليد تتناقض مع مذهبنا الاشتراكى وقوانيننا السوفييتية ..

... « ولهذا : فان من الضرورى أن نخوض كفاحا **مجردا من كل رحمة أو تسامح !!** ضد جميع المخلفات التى من هذا النوع ، وضد كل حالة منها . وليس فقط عن طريق توقيع العقوبات الصارمة وفقا للقانون ، بل والقيام فى كل مناسبة من هذه المناسبات بخلق رأى عام ساخط ، يندد بأولئك الذين يتمسكون بهذه العادات والتقاليد الضارة التى هى من مخلفات الماضى !!.

... « وقد أصبح علينا أن لا نعمل على تحسين دعايتنا الالحادية !! من كل الوجوه فحسب .. بل وأن نأخذ مأخذ الجد تدريب دعاة من النساء وتعليمهن بصورة جريئة لرفع شأن المرأة الى المراكز الرئيسية فى منظمات الحزب والمنظمات السوفييتية ، والاقتصادية ، والمنظمات العامة ، وفى ميدان انتاج المزارع الجماعية ، وكذلك لاظهار اهتمامنا الشديد بتحسين مركز النساء فى ميدان الحياة اليومية ورفع مستواهن الثقافى » .

وأصدر هذا المؤتمر توصيات واسعة النطاق تستهدف مضاعفة العمل فى سبيل **التغلب على مخلفات الدين الاسلامى** .

... كما عرضت جامعة داغستان الذى عقد فيها المؤتمر .. نشرات علمية وأدبية تتضمن : نقد الاسلام .. كما عرضت صورا فوتوغرافية تتناول موضوع :

« جوهر النظام الطبقى فى الاسلام ،

« والعلم والدين »

« وعرضت على أربعة حوامل : مقالات الصحف الاقليمية التى تتناول الدعاية الالحادية العلمية .

كما علقت لوحات مرسومة بعبارات كبيرة **تندد بمخالفات الاسلام وبالشريعة الاسلامية ، والعادات الضارة .**

* * *

والأسلوب الماركسى من أجل قيام الديكتاتورية العمالية العالمية فى دعوته الى التخريب واللاأخلاقية ، وفى تبريره الاجرام وسفك الدماء والغدر والخيانة .. له طابع الكذب والافتراء باسم : الدعاية الالحادية العلمية ضد الدين ، أى دين ، ويعتمد على ترويج الأمية الدينية والجهل بمبادىء الاسلام خاصة باسم العلم وقدسيته .

فليس فى كل ما قيل فى هذه التقارير كما يظهر جليا .. ما يدل على منهج علمى ، أو تحليل علمى يسبق الحكم والتقييم لما يقيم ، أو يصدر فى شأنه الحكم .

... ان ما جاء فيها لا يعدو أن يكون تلبيسا للحق لباس الباطل .. أو خلطا بين تقليد بيئى ومبدأ اسلامى ، أو ترويجا لأمية اسلامية باسم العلم الحديث .

... واذا جاز للماركسية اللينينية أن تتحدث فى الاقتصاد ، والتخطيط والتصنيع ، فانه لا ينبغى لها أن تتحدث عن حرية المجتمع ، وحرية الأفراد ، وقوة العلاقة فى الأسرة وكرامة المرأة كزوجة ، وعن الانسانية والانسان بصفة عامة .

فالفرد فى نظرها لا وجود له الا .. فى ظل قيادة الحزب الديكتاتورية : ممثلة فى اللجنة المركزية والقيادة الجماعية لعصابة من أعضاء الحزب الشيوعى .

والزوجية ، والأمومة ، والعلاقة الأسرية لا قيمة لها اطلاقا فى مواجهة الدولة ، ونظام الحزب الشيوعى .

ولكنها التتارية الآسيوية فى تصفية الاسلام فى مجتمعاته .. يوم تتغلب الماركسية اللينينية ، وتحكمها الحزبية الشيوعية .

... وكما فعلت الصليبية الكنيسية فى القرون الوسطى بالاسلام فى أسبانيا ، وفى جزر البحر الأبيض المتوسط ، وكما تآزرت هذه مع العلمانية ضد الاسلام فى بلاد البلقان منذ الحرب العالمية الأولى ، ثم بعدها فى تركيا الكمالية .. تفعل الماركسية اللينينية منذ الثورة الشيوعية ، وبعد الحرب العالمية الثانية فى بلاد المسلمين : فى آسيا التى ضمت بالقوة والعنف الى الاتحاد السوفييتى .

وستظل تفعل ذلك كلما سادت مجتمعا فأكثر من المجتمعات الاسلامية فى آسيا أو افريقيا .

* * *

واذن يجب أن يكون النظام المقبول فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة .. هو ذلك النظام الذى يقضى على العلمانية والقومية اللادينية ، ثم يقيها أيضا من التتارية الآسيوية الحديثة ، وهى تتارية الماركسية اللينينية الحادية .

الاسلام بتعاليمه ومبادئه جملة .. كفيل بتحقيق الهدفين فى مجتمعه ، ان تيض لهذه التعاليم والمبادىء أن تأخذ طريقها فى التنفيذ فى غير تردد .

● فنظرته الى المال من : أن ملكيته الحقيقية لله تعالى ، وأن وضع يد الانسان عليه وضع استخلاف وائتمان .. توجب على من تحت يده المال : أن يراعى الله فى مباشرته اياه : فى استثماره ، أو انفاقه ، على السواء .

ورعاية الله فى شئون المال هى : أن يجعل المال قوام الأمة الاسلامية كلها ، وليس لواضعى اليد عليه وحدهم . وعندئذ اذا لم يصرف فى حاجات الأمة كلها : لمن لا يملكون المال فيها ، ولوجود القوة والتماسك فى علاقات بعض أفرادها بعضا ، وفى مواجهة أعدائها ، عن اختيار ورضا نفسى ممن استخلف عليه .. فان للامام أن يجبر على نزعه ممن يسىء التصرف فيه ، أو تشح نفسه فتمسك به ، أو تكنزه عن التداول .. والحرب ضد مانعى الزكاة .. أمرها مشهور فى تاريخ المجتمع الاسلامى ... وفى قوله تعالى :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا »(١) .

... وفى قوله أيضا :

« وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى .

---

(١) النساء : ٥ .

وما يغنى عنه ماله اذا تردى . ان علينا للهدى . وان لنا للآخرة والأولى . فانذرتكم نارا تلظى »(١) .

... وكذا فى قوله :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم ..»(٢)

... وفى غير ذلك من آيات كثيرة ، مما يدل على أن : صلاح الأمة مرتبط برعاية الله فى شئون المال ، وعلى أن المسيئين فى هذه الشئون سواء بالسفة ، أو الشح والامساك ، أو الاكتناز وعدم تركه للتداول ، أو الاستغلال واهدار كرامة الآخرين عن طريقه ... لابد أن يلقوا جزاءهم على سوء تصرفهم ، وفى الوقت نفسه .. لابد أن يعاد وضع المال فى أيديهم الى وضعه الأصيل فى نظر القرآن ، وهو : وضع ارتباط كيان الأمة الاسلامية جميعها به على السواء .

واذا كان الله جل شأنه يتولى الجزاء فى الآخرة .. فان الامام فى الدنيا مسئول عن تنفيذ ما أمر به فى سبيل صالح الأمة وخيرها ... وهو اعادة الوضع الأصيل للمال ، وازالة الانحراف فى شئونه .

● **وكذا خلقية الاسلام الاجتماعية** من وجوب العدل والتوازن بين أى من اثنين فأكثر فى الحياة .... بين الانسان فى بدنه وروحه ، وبين الفرد والفرد : ان فى المبادلات والمعاملات ، أو فى التنمية ، أو فى رد الاعتداء .

... ومن وجوب الاحسان على من استطاع أن يزيد على العدل ، ويرتفع فوق التوازن : فى مبادلاته ومعاملاته ، فيعطى أكثر مما يأخذ ، ويوجب على نفسه أكثر مما يستحق لصالح غيره وأمنه ،

... ومن وجوب ترك المنكرات ، والفواحش ، والبغى ... ترك ما يقوض النفس وعلاقات الأسرة ، ويحيل المجتمع فى صلات بعضه ببعض الى شحناء وبغضاء ، وحقد وكراهية ، وقتال طائفة لأخرى ،

... هذه الخلقية الاسلامية الاجتماعية بانضمامها الى نظرة الاسلام الى المال ، على نحو ما سبق .. كفيلة باستئصال العلمانية ، ووضع سد منيع فى طريق الماركسية اللينينية الى المجتمع الاسلامى .

فالأمران معا ، من علمانية وماركسية ، لم يكونا أصلا من صنع الاسلام

---

(١) الليل : ٨ ــ ١٤ (٢) التوبة : ٣٤ ، ٣٥

أو من نتائج تطبيقه فى الحياة الانسانية . وانما كانا رد فعل لتصرف الكنيسة : أحدهما جاء عن طريق مباشر لهذا التصرف ، والآخر حدث نتيجة لطغيان سبق قبله .

وابتلاء المسلمين بهما ، كان بسبب امتداد جشع البربارية الأوربية الى بلاد المسلمين وما فيها من كنوز وطاقات ، يسرت له : من التمكن والاستغلال لثروات المسلمين ولجهدهم البشرى .. فرقة المسلمين بعدهم عن كتاب الله .. وتمسكهم بالتبعية المذهبية لضعف القادة والموجهين .

وليس من اليسير : أن يعلن النظام الاسلامى فى وقتنا الحـــاضر فى مجتمع معاصر .. فتنتزع منه فورا جذور العلمانية فى التوجيه ، ويزول طغيان الرأسمالية ، ويضعف تحديها للقيم الانسانية وتو اعلانه . فقد أعلنت مجموعة الملايين من المسلمين فى شبه القارة الهندية قيام دولة « باكستان » سنة ١٩٤٨ على أساس من حكم القرآن .. كتاب الله ، متحدية به نظم الحكم القائمة ، وهى النظم الغربية الديمقراطية ، والشرقية الشـــيوعية . وذلك تحقيقا لما نادى به الفيلسوف : محمد اقبال ، وعمل على تحقيقه : الزعيم السياسى .. محمد على جنة .

وليس من شك فى أن محمد اقبال .. يسر بفهمه الاســـلام وعرضه لمبادئه فى كتابه : « تجديد الفكر الاسلامى » صلاحيته فى التطبيق فى الحيـــاة اليومية المادية المعـــاصرة ، وحياة المجتمع المعـــاصر فى علاقة بعض أفراده ببعض ، وعلاقته : ككل .. بالمجتمعات الأخرى .

... كما أنه ليس من شـــك أيضا : فى أن محمد على جنة فى زعامته السياسية استطاع أن يخلق الجو السياسى الداخلى ، والجو الخـــارجى لقيام مجتمع معاصر على أسس اسلامية فى عالم تتحرش فيه الأيديولوجيات الانسانية بالدين .

وبعد عشر سنوات تقريبا من قيام دولة باكستان ظهر النقد السافر للاتجاه العلمانى الغربى لنشأة هذه الدولة على أسس اسلامية فى صـــورة بحوث علمية ، تستهدف الايحـــاء فى نفوس الباكســـتانيين بخيبة الأمل من جانب ، والتحذير للدول الاسلامية الأخرى من سلوك اتجـــاه باكســـتان الاسلامى فى نظام الحكم من جانب آخر ، وتطلب الى المسلمين جميعا : أن يحذوا حذو تركيا الكمالية من جانب ثالث .

وقد كتب أحد هذه البحوث المستشرق الكندى : « وليفرد كانتويل سميث » (Wilfred Cantwell Smith) فى كتاب له بعنوان : « الاسلام

فى التاريخ الحديث(١) (Islam in Modern History) والمؤلف يعتبر من اكثر المستشرقين اعتدالا فى تأليفهم ، وأكثرهم كذلك تودداً للعـــالم الاســـلامى .

وقد جاء فى هذا البحث :

« ان انشاء باكستان كدولة اسلامية يعتبر غلطة !! ويصب المؤلف ـــ كما تقول السيدة ـــ الكاتبة «مارجريت ماركوس(٢) (Margaret Marcus) على الباكستانيين شواظا من تقريعه ولومه ، وينعى عليهم : أنهم يعيشون على الماضى ويقدسونه . اذ يقول : انه من المستحيل تماما ، وضرب من العبث ... محاولة اعادة حكومة مضت فى عهد آخر !! . ان باكستان لا تستطيع أبدا أن تعيد شطرا من تاريخ الجزيرة العربية !! » .

* * *

والسؤال فى « تجربة باكستان » حقيقة .. هو :

هل الأخذ بالاسلام فى نظام الحكم المعاصر عبث ، لأنه اعادة لحكومة مضت فى عهد آخر ، ولأنه أيضا اعادة لشطر من تاريخ الجزيرة العربية .. أى اعادة لحكم البداوة فى الصحراء العربية على عهد الابل والقبيلة ؟

... أم أن الأخذ بنظام الاسلام فى المجتمع المعاصر يتطلب أولا : ازالة رواسب العلمانية ومخلفات القومية اللادينية فى التوجيه ، وآثار النظـــام الرأسمالى فى الاقتصاد القومى ؟

ان دعوى : أن الدين الاسلامى هو حصيلة التجارب لحياة البلاد فى صحراء الجزيرة العربية ، ومن ثم يتلاءم مع الوان الحياة البدائية فى الشعوب المتخلفة ، دون أن يستجيب للحياة الحضارية الانسانية وينجز مطالبها .. دعوى قديمة مكررة لدى المستشرقين . وهم مجموعة العلماء الأوربيين الذين سخروا أقلامهم باسم المنهج العلمى فى البحث للخدمة الكنيسية فى التبشير ، وخدمة الاستعمار الغربى فى الاستغلال للشعوب الاسلامية فى افريقيا وآسيا ... وأخيرا لخدمة العنصرية الأوروبية وتمكين ســـيادتها على الأراضى فى العـــالم القديم .. وهم أولئكم الذين صنعوا بعض المســـلمين فى جامعاتهم ليكونوا أئمة الكفر فى بلادهم معهم ، أو بدونهم .

---

(١) نشر فى سبتمبر سنة ١٩٥٩ نيويورك .

(٢) Muslim Digest; March 1960. Vol. 10 No. 8.

وهى كاتبة أمريكية ظهر نقدها لهذا الكتاب فى عدد شهر رمضان ـــ مارس سنة ١٩٦٠ فى المجلة الاسلامية السنوية التى تصدر من جنـــوب أفريقيـــا « دوربن » .

ثم هذه الدعوى نفسها : هى دعوى الطفولة البشرية فى الحكم ، التى تجعل شعارها : « ما عندنا خير مما عند غيرنا » .. من غير تفتيش فى عناصر القيمة الذاتية التى لكل مما عند الطرفين ..

انه يثير حقد الكنيسة ورجال التبشير والمستشرقين أن يقال : لا اله الا الله ، محمد رسول الله . لأن الكنيسة لا تطلب وحدة فى الألوهية ، كما لا تطلب رسولا بعد عيسى عليه السلام .

... ويثير الاستعمار ، كما يثير العلمانية الغربية والقومية اللادينية : أن يرتفع صوت المسلمين فى آذانهم عدة مرات فى اليوم مرددين : أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .. معلنين تضامنهم وتصميمهم كتلة قوية متراصة ، تفنى دون أن تذوب فى غيرها من الكتل والمجتمعات ، وتصبر على الشدائد والمكاره فى سبيل أن تبقى على عهدها من عباد الرحمن ، وعلى الولاء لبعضها بعضا غير متجاوزة به .. الى مودة من يحاد الله ورسوله ..

ان الاسلام جاء به محمد صلى الله عليه وسلم العربى القرشى ،

... وان الدعوة الاسلامية ابتدأت سرا وجهرة فى مكة ، التى كان يحمى سادتها عبادة الوثنية ، وهى عبادة : ترسم الصورة البدائية فى العقائد البشرية .

... وان المجتمع الاسلامى فى نظامه ، وحكمه ، وهدفه وتحديد علاقاته قام أولا بالمدينة بعد أن التقى « المهاجرون » « بالانصار » وغلبت عليهم الروح الايثارية فى سبيل تحقيق الهدف ، وهو : اعلاء كلمة الله ، أو سيادة القيم الانسانية فى حياة الانسان .

١ ــ فهل ، لأن محمدا عربى ، ولأن مسرح الدعوة ومكان المجتمع الأول أرض عربية .. يكون الاسلام عربيا وليس انسانيا ؟

٢ ــ هل لأن العرب كانوا قبائل عدة ، ولأن حياتهم كانت حياة البدو ، قبل أن تكون حياة الحضر .. يكون الاسلام دين البدو والصحراء ، وليس دين المدينة والحضر ؟

٣ ــ هل القرآن ، وهو كتاب محمد .. يصور دين الطبيعة البشرية ، ويرسم خطوط السلوك الانسانى الكريم فى ذاته .. أم أنه تعبير عن حياة محمد الخاصة التى عاشها فى تفاعله مع محيط الأجواء العربية القبلية ؟

● ان تقييم الاسلام قبل كل شىء .. من كتابه ، وهو القرآن الكريم .. وليس من حياة محمد الخاصة .. ولا من حياة العرب العامة ..

● وان تقييم ما جاء فى القرآن من مبادىء .. يعود الى طبيعة هذه المبادىء فى ملاءمتها لها .. وليس لملاءمة حياة البدو دون حياة الحضر .

● واذا استقرت ملاءمة الاسلام لخصائص الطبيعة الانسانية الذاتية ، فهو لأجيال البشرية كلها ولعهودها المختلفة .. وليس لجيل معين ، فى مكان معين ، فى وقت معين .

ان الاسلام يستهدف السلام . والسلام يتحقق فى التوازن . فرسالته لا تخرج عن رسم طريق التوازن بين كل اثنين متقابلين فى الوجود ، ولو كانت هذه الاثنينية فى الفرد الواحد .. بين بدنه وروحه .

... واذا كانت تلك هى رسالة الاسلام .. أيكون لتراب معين ، وانسان خاص ، وعهد ماض .. أو آت ؟ .

... ولكنها الطفولة البشرية فى الحكم ... ولكنه الحقد ... ولكنها روح السيطرة والاستغلال ... ولكنها روح الأنانية .

ان تجربة « باكستان » يعوق تقدمها .. رواسب العلمانية ، وليس نظام الاسلام فى الحكم ... يعوقها : اختلاف الثقافة ، واختلاف نظم التعليم واختلاف مناهج الحياة تحت تأثير الجديد والقديم ... ذلك الاختلاف الذى أتت به العلمانية ، ورسبته فى نفوس المسلمين ووضعته حواجز بينهم .

... انه يعوقها ويشل فاعليتها سيطرة رأس المال الأجنبى فى الاقتصاد القومى ، وتحكمه فى الضغط على سياسة الحكم ، وعلى التوجيه بصفة عامة .

... انه يعوقها ويشل فاعليتها .. تعدد اللغات فى الأمة الواحدة ، كل لغة منها تعبر عن ثقافة واتجاه ، بدلا من لغة واحدة ، هى : لغة الاسلام ، وهى لغة كتابه .

ومن أجل : أن لا يتعجل فى الحكم على تجربة النظام الاسلامى فى باكستان أو فى مجتمع اسلامى آخر تأثر بالاستعمار الغربى وبالأيديولوجية العلمانية .. يجب أن تكون هناك مرحلة « انتقالية » تخرج بالمجتمع من أخطبوط العلمانية تدريجيا .. الى الملامح الإسلامية فى جوانب حياته العديدة .

وأولى خطوات هذه المرحلة تصفية النفوذ الأجنبى فى الاقتصاد القومى .

ومن الأهمية بمكان ، مع تصفية النفوذ الأجنبى فى الاقتصاد القومى .. العمل على تمكين الخلقية الاسلامية فى التعليم والتوجيه ، سواء منها

الفردية أو الجماعية حتى تكون المباشرة للمال من قبل الوطنيين مباشرة سليمة تقوم على رعايته ، وعلى أنه للكل .. وفى خدمة الأمة جميعها ، لا فرق بين من يملكه ومن لا يملكه .

ويجب أن لا يكون تأكيد السلوك الاجتماعى على حساب العناية بالأخلاق الفردية : كالصدق ، والأمانة ، والعفة ، ونحوها .. مما من شأنه أن يصقل الفرد ويهذبه كوحدة فى بناء المجتمع . اذ بدون هذه الأخلاق الفردية لا تتحقق الخلقية الاجتماعية أصلا . فليس من المعقول : أن يكون فرد ما عادلا — والعدل خلق اجتماعى — وهو غير صادق ، أو غير أمين ، أو غير عفيف — وكل صفة من هذه خلق فردى : فتوام العدل .. الاعتراف بوجود الفرد الآخر ، وبحقه فى الحياة . وهذا يعنى : عدم خداعه بالكذب ، ويعنى : تأدية ما يؤتمن عليه له ، ويعنى : أن يكون عفيفا عما فى يد غيره وعما يدخل فى حرماته الشخصية .

... واذا لم يكن الفرد عادلا .. يستحيل أن يكون محسنا ... يستحيل أن يكون معطيا من جهده الانسانى وطاقته البشرية أكثر مما يأخذ من غيره . سواء أكان هذا الجهد مقوما بمال ، أو معبرا عن انسانية مهذبة فى المعاملة والسلوك . والاحسان خلق اجتماعى كذلك . أى أن عدم توفر الخلق الفردى سيؤدى ، الى عدم الاتصاف بالخلق الاجتماعى : الممثل أولا فى العدل .. ثم بعد ذلك فى الاحسان .

... وبالتالى اذا باشر الفرد المنكرات والفواحش ، أو اذا اعتاد البغى والظلم .. فان تصرفه يكون أكثر بعدا عن التخلق بالأخلاق الفردية من : صدق ، وأمانة ووفاء ، وعفة ... ثم أكثر بعدا كذلك عن التخلق بالخلق الاجتماعى من عدل .. فاحسان . فمباشرة الفواحش والمنكرات ، ومباشرة البغى والظلم دليل الأنانية الجامحة ، التى لا تعرف وجودا للغير فضلا عن اعتراف بحقوق له .. أو أداء واجبات تؤدى نحوه ... هى دليل التحكم الغريزى فى وحشية الغريزة الأصيلة .

والطريق الى تصفية النفوذ الأجنبى فى الاقتصاد القومى .. أن يؤول الاشراف عليه الى التشريع الوطنى ، والى أجهزة الرقابة المحلية بما فيها عناصر الخبرة الفنية ، بحيث يتحرر من التوجيه السياسى المضاد للمصالح الوطنية ، وبحيث يؤثر هذه المصالح فى توجيه الاستثمارات والتنمية .

... يجب أن يكون هناك « توجيه » وطنى للاقتصاد القومى فى المجتمع الاسلامى . ولكن مدى هذا التوجيه يرتبط بالظروف الخاصة بالمجتمع نفسه ، ثم أيضا بمدى النفوذ الأجنبى وتغلغله فى مصادر الثروة القومية فى مجتمع معين .

وقد يتعين أن يكون « التوجيه » فى صورة تأميم أو فى خلق «قطاع عام» للمصادر الرئيسية للانتاج ، بجانب الملكية الخاصة . وقد يكتفى بأن يكون « التوجيه » فى صورة رقابة عامة واشراف لا يحول دون الاحتفاظ بجو « المباشرة الفردية » لراس المال ، ولكنه مع ذلك يضمن رفع الاستغلال انسياسى ، كما يضمن رفع الاحتكار وعدم استغلال الطاقة البشرية فى العمل .. من أجل ربح أوفر ، وعائد أكثر .. على حساب بشرية العمال ، وعدم رفاهية المستهلكين .

وفى كلا الأمرين .. لا تنجح مباشرة المال فى القطاع العام ، ولا تتمر الرقابة فى توجيه المباشرة الفردية ، الا اذا كان وراء هذه وتلك .. **ضمير خلقى قائم على الايمان بالله** ، تكون من السلوك ، طبقا للرسالة الالهية ، يدفع فى الطرق التى تحقق المصلحة العامة وحدها .

وعلى كل حال : خلق قطاع عام فى الاقتصاد القومى ، بجانب الملكية الفردية ، أو انشاء رقابة محكمة لضمان توجيه المباشرة الفردية للمال ، حال الابقاء عليها فى المجتمع — أى مجتمع اسلامى ... هو من التدابير المؤقتة التى يلجأ اليها الامام وولى الأمر ، وليست لها صفة الدوام ، والاستمرار ... هى من التدابير التى تعالج وضعا خاصا ، نشأ نتيجة الاستغلال ، والانحراف فى النظرة الى المال ، ونتيجة ضعف الأمة الاسلامية وقبولها لتحدى أعدائها فى فرض المذلة والهوان عليها ، وحملها على التخلص من ايمانها ومقوماتها الذاتية .... فاذا عاد أمر المجتمع الى طبيعته من قوة الايمان والتماسك ، وصحت نظرته الى المال : فى أن يرى أن وظيفته وظيفة اجتماعية ، وتمكنت الخلقية الاجتماعية ، بعد الخلقية الفردية ، فى تصرفات الأفراد .... وجب الرجوع الى الحرية الفردية الاسلامية فى مباشرة المال . وهى حرية تدور فى اطار المصلحة العامة التى حددتها الأوامر والنواهى الخاصة بالمعاملات المالية وشئون المال على العموم .

وليس الرجوع الى الحرية الفردية فى مباشرة المال عند أمن عدم الاستغلال والانحراف ، وعند أداء وظيفة المال على وجهها المستقيم .. يطلبه النظام الاسلامى كنظام خلقى انسانى فحسب .. بل الطبيعة البشرية نفسها تحس بأن الغاء الملكية الفردية ، كالتدخل المركب فى الرقابة على المباشرة الفردية ، ليس سنة الحياة ولا طريقها الطبيعى . واذا نفذ يوما ما .. فلدرء مفسدة والى حين .

والمجتمعات غير الاسلامية التى أخذت بمبدأ الغاء الملكية الفردية ، فى فورة غضبها وسخطها على من يملكون المال لسوء استغلالهم اياه ، عادت تنتقل من وضع التشدد فى الالغاء التام الى وضع الاباحة فى نطاق معين

وبحدود خاصة . سواء أكان مرد ذلك : الى سوء الانتاج فى الملكية العامة لسبب ما يسمى : بعدم وجود الحوافز الفردية ، أو بسبب كراهية العمل الجماعى وعدم كفايته فى اشاعة السرور بحياة العمل اليومى فى نفوس العاملين . وهذا السبب ، وذاك : مما يجعل التدابير الخاصة بتصفية الاستغلال والانحراف فى شئون المال ذات طبيعة موقوتة ، تنتهى حتما فى وقت ما لاحق : طال أو قصر .

ولذا حرصت الاشتراكية العربية — كما ينص ميثاقها — على أن تكون التجربة الاقتصادية لفترة حددت بعشر سنوات يعاد النظر بعدها فى سنة ١٩٧٠ مرة أخرى فى أمر هذه التجربة ، وذلك .. فى ضوء ما يتم من انجازات ومن اصلاح للعلاقات وعودتها الى ما يجب أن تكون عليه من وضع انسانى ، فوق مستوى الأحقاد والسخط والكراهية بين الأفراد .

● والخطوة التالية ، لخطوة تصفية الاقتصاد القومى من النفوذ الأجنبى ومن الاستغلال والانحراف فى وظيفة المال ، هى اعادة النظر فى مفاهيم القيم الاسلامية ، التى تحكم تصرف الأفراد ومعاملات بعضهم مع بعض .. هى اعادة النظر فى مفاهيم القيم الأخلاقية للسلوك الفردى ، ومفاهيم القيم الأخرى فى علاقات الأسرة ، والعلاقات المدنية : سواء أكانت اقتصادية ومالية أم اجتماعية وأدبية .

... وهى **مهمة علماء المسلمين** من فقهاء ، وفلاسفة ، وعلماء اقتصاد واجتماع . وهى مهمة تقوم على أساس : **أن المفاهيم كائنات تتطور** ، وتخضع للقوة كما تخضع للضعف ، وتمثل العصور والعهود المختلفة .. كما تمثل الأجيال والأشخاص .. وتقوم أيضا على : أن كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة فى صفاء تطبيق عهد الرسالة ، وفى مواجهة ترجمة الأحداث وتوسع العمران ونشوب الخلافات الداخلية وتحدى المؤامرات الخارجية على أيام الخلفاء الراشدين .. هى الأصول التى ترد اليها مفاهيم القيم الاسلامية ، وهى الأوضاع التى تكون الأجواء الصحيحة لامتداد أفق هذه المفاهيم فى تناولها جزئيات جديدة لم تعهد من قبل .

واعادة النظر فى مفاهيم القيم الاسلامية مقدمة لوضع بناء تربوى تعليمى وتوجيهى ، واقتصادى ، وسياسى ، وادارى ، وتشريعى ... مقدمة لوضع نظام حكم اسلامى يتبنى القيم الاسلامية ، ويتميز عن أى نظام آخر .. يحتضن هذه .. أو تلك ، من الأيديولوجيات الأوروبية فى الشرق أو الغرب .

... اعادة النظر فى مفاهيم القيم الاسلامية تمهيدا لتخطيط فلسفة انسانية اجتماعية تحكم علاقة الفرد بالفرد وعلاقته بالمجتمع ، ووضعه من الدولة ووضع الدولة منه ، ومكان الانتاج والخدمات ، ومنزلة الرعاية

الاجتماعية فى صنوفها المختلفة ... وغير ذلك مما استجد فى المجتمع المعاصر ويعتبر مقوما أساسيا فى الحياة الانسانية المعاصرة .

وليس بلازم أن يبدأ فى تخطيط هذه الفلسفة من فراغ .. بل يجوز أن يبدأ من تقييم تجربة قائمة فعلا فى نظام الحكم فى مجتمع اسلامى ، فى ضوء ما تسفر عنه محاولة اعادة النظر فى مفاهيم القيم الاسلامية ، على أن يوضح ما هو مجمل فى هذه التجربة من الزاوية الاسلامية ، أو أن يضاف اليها ما يكمل بناءها فى أى جانب من جوانب الحياة الانسانية فى نظام الحكم ، ان ظهر قصور فى التجربة ... أو دعت حاجة الى اتمام البناء ، كالتعليم ، والتشريع والتوجيه العـــام .

ان الوضع فى تخطيط فلسفة الحكم الاسلامى ليس وضع تفصيلات ، بقدر ما هو احكام نظريات وأصول عامة تتضمنها أو تقوم عليها أوجه البناء المتعددة فى نظام الحكم ...

... كنظرة « الاستخلاف » و « الائتمان » فى ملكية المال .

... وكنظرة العدل ، والاحسان ، وتجنب المنكرات فى بناء العلاقات الاجتماعية .

... وكنظرة « الرعاية المتبـــادلة » فى نظام الدولة وعلاقة الحـــاكم بالمحكومين : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ... » .

... وكنظرة « الحرية الفردية » فى اطار صيانة الحرمات الشخصية ..

ونحو ذلك مما يؤصل مناهج التعليم ، ويحكم مبادىء القانون ، ويلقى الضوء فى سياسة الارشاد والتوجيه ، ويحـــدد وضع ما يســـمى بتعدد السلطات فى القضاء ، والتنفيذ ، والتشريع ، فى نظام الحكم ، ويضع معالم الاقتصاد وحركة استثمار المال .. الخ .

وبغير أن تكون هناك فلسفة اسلامية جديدة لنظام الحكم ، تقوم على اعادة النظر فى المفاهيم الاسلامية ، وتخطيط لجوانب الحياة الانســـانية فى المجتمع المعاصر .. لا يمكن أن نطالب بنظام اســـلامى للحكم فى المجتمعات الاسلامية ، مستقل عن النظم الأخرى المؤسسة على الأيديولوجية العلمانية ، أو على الأخرى الالحادية العلمية . وبغير ذلك أيضا .. لا يمكن أن يدخل الاسلام ، فى قوة وفى أمل فى النصر ، فى الصراع الأيديولوجى المرير الذى يقوم على أرضه ، والذى وزع المسلمين من الأسف العميق الى مجموعات يخاصم بعضها بعضا مخاصمة فكرية ، وربمـــا تتربص كل منهـــا بالأخرى تربص العـــدو اللدود .

ان الأكاديميات ومجامع البحوث الاسلامية فى العالم الاسلامى ، لا تؤدى وظيفتها .. يوم تقف بانتاجها عند حد العظات ، أو عند حد اعادة كلام الفقهاء الذين انقطعوا عن ماضى المجتمع الاسلامى العريق ولم يتصلوا باتجاهات المجتمع المعاصر ويتعرفوا على أيديولوجياته ، أو عند حد الاستمرار فى عرض مذاهب علماء الكلام وآرائهم فى مشاكل وقتهم ، وقضايا الفكر الانسانى القديم .

ان المسلمين فى الصراع الأيديولوجى المعاصر .. فى خطر الحرب الباردة والساخنة على السواء ، ضد بعضهم بعضا . وان الاسلام بينهم معرض للهزيمة والفناء .. وان علماء المسلمين أبعد ما يكونون اليوم عن أداء الواجب للمسلمين والاسلام معا ، اما بسبب عزلتهم وانزوائهم فى حياة مجتمعاتهم ، واما بسبب فقدهم الصلاحية لحمل الرسالة ، واما لايثارهم الدنيا على الايمان بالاسلام .

« والذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا ، وجاهدوا معكم .. فأولئك منكم »(١)

ان طريق المسلمين الى الاستقلال باسلامهم فى مجتمعاتهم شاق وطويل .. انهم لن يتركوا فى سعيهم نحو هذا الاستقلال من غير تضحية فى أنفسهم وفى أموالهم واقتصادهم .. من هؤلاء .. وأولئكم : فى الغرب ، والشرق على السواء .. انهم لن يتركوا لتحقيق هذا الاستقلال دون أن يؤذوا عن طريق هؤلاء وأولئكم فى دعايتهم والتشنيع عليهم .

ولكن اذا أصر المسلمون على استقلالهم باسلامهم ، غير خاضعين لأيديولوجية الغرب العلمانية الديمقراطية وما نشأ عنها من قومية لا دينية ، وغير خاضعين كذلك للشرق لأيديولوجيته الالحادية التتارية ، وصبروا وتمسكوا بمبادىء دينهم وبولائهم لله وحده .. فان أمرهم سينتهى الى النصر حتما ، والى القوة حتما .

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور »(٢) .

---

(١) الأنفال : ٧٤ ، ٧٥ . (٢) آل عمران : ١٨٦ .

وما جاء فى كتاب الله هنا .. لم يكن فقط لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم ، وانما هو للمسلمين فى كل وقت يصيبهم فيه انحراف أهل الكتاب ووثنية المشركين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ... يصيبهم اذاهم فى : أنفسهم ، وأموالهم ، وسمعتهم .

وما كان الصبر ، وما كانت التقوى بالوسيلتين الناجحتين فى اجتياز الأزمات من أزمات الأعداء جميعا على وقت الرسول وصحابته فقط .. وانما هما دائما مناط النجاح ... ومصدر القوة اذا تأزمت الأمور واشتدت الأحداث .

* * *